الإلحاد وُلِد ميتًا

كل افتراضاته – الخيالية (الصدفة، الزمن الطويل، الداروينية، الأكوان المتعددة، الأخلاق التطورية...) مجرد محاولات إسعاف.. لجثة (هامدة)

وليد صادق

تمهيدي ماجستير شريعة إسلامية



الإلحاد ولد ميتًا

الطبعة الأولى

٢٠٢٦

سبحانك

لا علم لي إلا ما علمتني

ولا حول ولا قوة إلا بك

فاللهم

برحمتك أستغيث

وبك أستعين

وعليك أتوكل

في موافقة مرضاتك

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شُرور أنفسنا، ومن سيئاتِ أعمالنا، مَن يهدهِ الله فهو المهتدي، ومَن يُضلل فلا هاديَ له.. وأشهدُ أَنْ لاَ إله إلاَّ الله وحده لا شريك له.

سبحانه.. لا يُهزم ولا يُغلب، ولا يُقتل ولا يُصلب. خلق عيسى من غير ذكر، وخلق حواء من غير أنثى، وخلق آدم من تراب.. وأشهد أن مُحَمَّدا عبده ورسوله، نصّ عليه موسى، وبشر به عيسى، وهو دعوة إبراهيم. صلى الله تعالى عليه وعليهم أجمعين.

أما بعد.. فالأفكار الكبرى لا تولد في الفراغ، بل تولد غالبًا بوصفها حلولًا لأزمات، ثم تتحول هي نفسها إلى مصدر أزمات جديدة..!

أزمة الإلحاد المعاصر، تتمثل في: رفض أي تفسير متجاوز للطبيعة..! فالإلحاد المعاصر ليس مرتبطًا بنظرية معينة في الفيزياء أو الأحياء، بل هو التزام مسبق بأن يبقى التفسير داخل حدود الطبيعة؛ ولذلك، كلما ظهرت أزمة، كان الاتجاه هو البحث عن تفسير طبيعي جديد.. لا لأن هذا التفسير ثبت بالضرورة؛ بل لأن الخروج إلى تفسير متجاوز يُعد خروجًا عن الإطار الذي التزم به النسق منذ البداية..!

فالإلحاد يقوم على قرار منهجي سابق.. وهذا القرار هو: لن نسمح لأي تفسير يتجاوز الطبيعة بالدخول في النسق..!

بعد هذا القرار تبدأ رحلة البحث عن التفسيرات.. فإذا عجز تفسير، لا يُراجع القرار..!!

بل يُبحث عن تفسير – طبيعي – آخر..!!

وهذا يفسر لماذا تتغير النظريات، بينما يبقى الإطار.

فالثابت في الإلحاد هو الالتزام بحصر التفسير داخل الطبيعة، بينما تتغير التفسيرات الجزئية مع ظهور الأزمات..!

ولو طبقنا هذا كمنهج، فستكون الخريطة الأولية للإلحاد هكذا: أزمة.. فكرة.. المكسب.. الثمن.. أزمة جديدة.. فكرة إسعافية.. أزمة أحدث..،..

وهو ما سوف أتتبعه في هذا البحث من الصفر إلى الحقيقة النهائية.

وليد صادق

تمهيد: العُقد التي واجهت الإلحاد عبر تاريخه

الأزمة الإلحادية الأولى: كيف نفسر العالم دون الحاجة إلى إله؟

لاحظ: هذه ليست أزمة علمية ! بل أزمة فلسفية: هل وجود الله ضرورة لتفسير الكون

الفكرة الأم: الاكتفاء بالطبيعة: أي أن المادة والطاقة وقوانين الطبيعة كافية لتفسير كل شيء ! هذه هي البذرة التي خرجت منها صور الإلحاد الحديث

الأزمة الثانية: إذا كانت المادة وحدها موجودة: فمن أين جاءت قوانين الطبيعة؟ ولماذا هذه القوانين قابلة للفهم الرياضي؟ وكيف نشأت الحياة؟ وكيف ظهر الوعي؟ وكيف ظهرت الإرادة؟

كل سؤال منها يمثل ثغرة جديدة.

الفكرة الإسعافية الأولى: الصدفة..! والتطور الصدفوي !!

فتحمل الصدفة عبء تفسير التعقيد..! لكن هذا لا يفسر أصل قوانين الكون ولا أصل المادة ولا أصل المعلومات الحيوية.

الأزمة الثالثة: ظهور الضبط الدقيق للكون: الأرقام تشير إلى أن ثوابت الكون مضبوطة بصورة مذهلة ![1]

---

[1] برهان الضبط الدقيق (الأرقام فيه ليست "مقنعة" فقط.. بل مرعبة): الكون مضبوط على سكين حادّ، لو انحرفت ثوابته مقدار شعرة لانهار كل شيء.. الثابت الكوني لو تغيّر بمقدار ١ من ١٠^١٢٠ لتساقط الكون كما تتساقط رقائق الثلج في النار.. الجاذبية لو زادت بنسبة ضئيلة لانهار كل نجم في الكون، ولو نقصت بنسبة ضئيلة لتفكّك كل نجم، وفي الحالتين: لا وجود للذرات.. ولا للكيمياء.. ولا للحياة.. ولا للمُلحد! من الذي ضبط هذا الكون؟ "الصُّدْفَة؟ الصُّدفة لا تُنتِج نظامًا واحدًا، فكيف تنتج كونًا بأكمله، يحكمه كود رياضي محكم؟ الصُّدفة ليست تفسيرًا.. الصدفة اعترافٌ بالعجز عن التفسير قيل بطريقة تحفظ ماء الوجه.

الفكرة الإسعافية الثانية: الأكوان المتعددة..! بدل تفسير الضبط الدقيق، يُفترض وجود عدد هائل من الأكوان، فنحن في الكون المناسب للحياة.
لكن السؤال ينتقل إلى مستوى أعلى – إذا تجاهلنا أن الفكرة مستحيلة الإثبات – فيظل السؤال: من أين جاءت الآلية التي تنتج هذه الأكوان؟
الأزمة الرابعة: إذا كان الإنسان مجرد مادة: فمن أين الأخلاق؟ وما معنى العدل؟ وما أساس حقوق الإنسان؟ ولماذا يكون القتل ظلمًا أصلًا؟
الفكرة الإسعافية الثالثة: الأخلاق التطورية أو العقد الاجتماعي..! لكنها تجعل الأخلاق في النهاية نتاج المنفعة أو الاصطفاء، لا حقيقة موضوعية.. فتعود الأزمة مرة أخرى.
الأزمة الخامسة: إذا كان العقل نتاج تفاعلات كيميائية عمياء هدفها البقاء فقط: فلماذا نثق أصلاً بأن العقل قادر على الوصول إلى الحقيقة؟
وهذه من أقوى الأزمات الفلسفية للإلحاد.
إذن.. هناك فكرة ولّدت سلسلة من الأفكار الإسعافية، وهذه "الفكرة الأم" في الإلحاد الحديث يمكن صياغتها هكذا: الطبيعة مكتفية بنفسها، ولا حاجة إلى تفسير متجاوز لها..!!
ومن هذه الفكرة خرجت بقية الأفكار الإسعافية: الصدفة، والتطور غير الموجه، والأكوان المتعددة، والأخلاق التطورية، والطبيعانية في تفسير العقل والوعي.
وهذا الموضوع سيكون أكثر إحكامًا عند دراسة "الإلحاد" ليس ككتلة واحدة، بل بدراسة العُقد التي واجهته عبر تاريخه: فأبدأ بـ العقدة الأولى،

وأفككها حتى أصل إلى الفكرة الإسعافية التي وُلدت منها، ثم أنتقل إلى العقدة التالية، حتى أرسم في النهاية شجرة كاملة لتطور الإلحاد المأزوم.

وسألتزم بهذا المنهج طوال البحث؛ لأنه يكشف البنية الداخلية للفكرة أكثر من مجرد سرد تاريخها.

الخريطة العامة: الأزمة – الفكرة الأم – الحل الإسعافي – الأزمة الجديدة – الحل الإسعافي الجديد...

حتى أصل إلى الصورة الحالية.

لكن قبل الدخول في العقدة الأولى، يجب تحديد الفكرة الأم التي يحاول الإلحاد الدفاع عنها.. فالعقدة الأولى في الإلحاد: هل يحتاج الكون إلى تفسير خارج نفسه؟

هذا هو السؤال الذي انقسمت عنده البشرية؛ فالإنسان القديم، واليهودي، والنصراني، والمسلم، بل وأكثر الفلاسفة عبر التاريخ، كانوا ينطلقون من مسلمة مشتركة: أن الموجودات المحتاجة لا تفسر نفسها بنفسها.

ثم جاء الاتجاه الطبيعي الحديث ليقول: بل الطبيعة تكفي نفسها.

وهنا ولدت الفكرة الأم: التي لم تكن إنكار الله ﷻ ابتداءً.. بل: أن الطبيعة مكتفية بذاتها، ولا تحتاج إلى علة متجاوزة لها !

لاحظ الفرق.. فالإلحاد ليس في أصله فكرة إيجابية تقول: "الله غير موجود"، بل فكرة سلبية تقول: "لا نحتاج إلى فرضية اسمها الله"؛ ولهذا كان كثير من الملاحدة الأوائل يتجنبون الجزم بنفي وجود الله، ويكتفون بالقول

إن تفسير الطبيعة بالطبيعة كافٍ.

وهذه النقطة في غاية الأهمية؛ لأنها ستفسر لنا لماذا أصبح الإلحاد مع مرور الزمن يحمل عبئًا متزايدًا.. فكلما اكتشف العلم جانبًا جديدًا من تعقيد الكون، لم يعد السؤال: هل يوجد إله؟، بل أصبح: هل تستطيع الطبيعة وحدها تفسير هذا الاكتشاف؟ ومن هنا بدأت الأزمات تتراكم..

لماذا أسميها "الفكرة الأم"؟ لأن كل الأفكار اللاحقة ليست إلا محاولات لحماية هذه العبارة الواحدة: ((الطبيعة تفسر نفسها بنفسها))..

فإذا ظهرت مشكلة أصل الحياة، ظهر حل إسعافي.. وإذا ظهرت مشكلة الضبط الدقيق، ظهر حل إسعافي آخر.. وإذا ظهرت مشكلة الوعي، خرج حل جديد.. وإذا ظهرت مشكلة الأخلاق، خرج تفسير جديد.

إنها ليست أفكارًا مستقلة، بل أشبه بدعامات تُضاف إلى بناء واحد كلما ظهر فيه تصدع..!

إذن.. لن أبدأ بالداروينية أو الانفجار العظيم أو الأكوان المتعددة؛ فهذه فروع.. بل أبدأ بالسؤال الذي سبقها جميعًا: كيف نشأت فكرة أن الطبيعة يمكن أن تكون مكتفية بنفسها؟ لأن هذا هو الموضع الذي وُلد فيه الإلحاد الفلسفي الحديث، ثم جاءت العلوم لاحقًا لتُستدعى في دعمه أو في إعادة صياغته.. وهذه سوف تكون نقطة الانطلاق الصحيحة.

فإذا أحكمنا فهم هذه العُقدة الأولى، فسوف تبدو بقية مراحل الإلحاد وكأنها تتكشف تلقائيًا، لا كأفكار متفرقة.. بل كسلسلة مترابطة من الأزمات والأفكار الإسعافية.

كيف وُلدت فكرة "اكتفاء الطبيعة بنفسها"؟

لو عدنا آلاف السنين إلى الوراء، لوجدنا أن السؤال لم يكن: هل الله موجود؟ بل كان: ما الذي يفسر وجود هذا العالم؟ وكان الجواب المشترك عند أكثر الحضارات والفلاسفة هو أن العالم متغير، حادث أو مفتقر، فلا بد له من مبدأ أعلى يفسره؛ ولهذا لم يكن الإلحاد هو الأصل في تاريخ الفكر، بل كان استثناءً محدودًا.. حتى الفلاسفة الذين اختلفوا في صفات الإله، كأفلاطون وأرسطو، لم ينكروا وجود مبدأ أعلى يفسر الكون، وإن اختلف تصورهم له.

الأزمة التي ولّدت الإلحاد الحديث: هنا لا بد من الانتباه.. لم يولد الإلحاد أولًا من المختبر..! بل من أزمة معرفية مع السلطة الدينية في أوروبا..! ففي القرون الوسطى، كانت الكنيسة لا تمثل مجرد مؤسسة دينية، بل كانت أيضًا مرجعية في قضايا تتعلق بالطبيعة والكون !

ومع صعود الاكتشافات العلمية، وقع صدام في بعض القضايا، فأصبح عند بعض المفكرين شعور بأن تفسير العالم يجب أن يتحرر من الاحتكام إلى التفسير الديني.. وهنا حدث انتقال دقيق جدًا:

كان الشعار في البداية: لنفسر الظواهر الطبيعية بأسباب طبيعية.. وهذا في ذاته مبدأ علمي صحيح.. لكن مع الزمن تحول عند بعضهم إلى: الطبيعة وحدها تكفي لتفسير كل شيء..

وهنا وقع الانتقال من "المنهج العلمي" إلى "الطبيعانية الفلسفية" !

وهذا هو المنعطف الذي ينبغي ألا نغفل عنه.

الطبيعانية الفلسفية

هذا الصراع بين العلم والكنيسة أدى إلى ولادة الفكرة التالية: كلما استطعنا تفسير ظاهرة بسبب طبيعي، فلا حاجة إلى تفسير متجاوز للطبيعة.

لاحظ أنها تبدو لأول وهلة معقولة؛ لكنها تخفي انتقالًا منطقيًا كبيرًا، فالعلم يجيب عن سؤال: كيف تعمل الأشياء؟ أما الفلسفة فتجيب عن سؤال: لماذا يوجد شيء أصلًا؟ ولماذا توجد هذه القوانين؟

فالانتقال من الأول إلى الثاني ليس نتيجة علمية، بل اختيار فلسفي.

الأزمة الجديدة: سرعان ما ظهرت مشكلة لم يكن هذا التصور قادرًا على حلها: فإذا كانت الطبيعة تفسر نفسها، نشأت أسئلة مثل: لماذا توجد الطبيعة أصلًا بدلًا من العدم؟ من أين جاءت قوانينها؟ لماذا قوانينها ثابتة وقابلة للوصف الرياضي؟ ولماذا يستطيع العقل الإنساني فهمها؟

وهنا بدأت أولى الشقوق في البناء؛ فكل فكرة في الإلحاد قدمت حلًا لمشكلة، لكنها في الوقت نفسه أوجدت مشكلة أعمق، فاستدعت فكرة أخرى..! وهذا يفسر أيضًا لماذا استمرت الفكرة الأولى رغم الأزمات التي واجهتها..

السر في هذا "الجزام الإسعافي" الذي يحيط بالفكرة الأولى ليمنعها – بعد موتها – من التصدع والسقوط..!! فتبدو قائمة ! وهي في حقيقتها: جثة هامدة.

أول عقدة حقيقية

العقدة الأولى: طرد الغاية من الكون

(١)- الأزمة.. كان الإنسان يرى الكون كتابًا مفتوحًا مليئًا بالغايات: العين للإبصار.. الأذن للسمع.. الجناح للطيران.. البذرة للشجرة.. المطر للزرع.

بل كان يرى النظام نفسه شاهدًا على القصد.

لكن مع الثورة العلمية الحديثة برز سؤال جديد: هل نحتاج إلى "الغاية" في تفسير الطبيعة، أم يكفي أن نكتفي بالأسباب المادية؟

(٢)- الفكرة.. جاءت الفكرة الجديدة: لا نسأل: لماذا وُجد الشيء؟ بل نسأل: كيف يعمل؟

وهذا التحول كان منهجيًا في أصله، وأسهم في تقدم العلوم الطبيعية؛ لأن الباحث صار يفتش عن الأسباب القابلة للملاحظة والاختبار.

(٣)- المكسب.. حقق هذا التحول مكاسب حقيقية: ازدهر المنهج التجريبي.. أمكن تفسير كثير من الظواهر الطبيعية.. تراجعت التفسيرات غير القابلة للاختبار في ميدان العلوم.

إذن، لم يكن كل ما جاء به هذا التحول باطلًا، بل كان فيه جانب صحيح يتعلق بمنهج دراسة الطبيعة.

(٤)- الثمن.. لكن هنا وقع الانتقال الذي نحتاج إلى التمييز بينه.. تحول السؤال من: في البحث العلمي لا نعتمد الغايات تفسيرًا مباشرًا للظواهر.

إلى: إذن لا توجد غايات أصلًا..!!

وهذا ليس استنتاجًا علميًا، بل قفزة فلسفية..!

فالمنهج العلمي يختار أن يدرس "كيف تعمل الأشياء"، لكنه لا يستطيع وحده أن يحكم بأن "لا غاية وراء الأشياء".

وهنا خرجنا من المختبر إلى الفلسفة.

(٥)- الفكرة الإسعافية.. ولحماية هذا التصور، بدأ يُعاد تفسير كل ما يبدو مقصودًا على أنه نتيجة عمليات غير واعية !

فبدل أن يقال: "انتظام الشيء يدل على القصد".. صار يقال: "الانتظام قد ينشأ من قوانين عمياء" !

وهذه الفكرة ستصبح لاحقًا الأساس الذي ستُبنى عليه الداروينية بصيغتها الإلحادية،[١] وتفسيرات نشأة التعقيد دون افتراض قصد.

---

[١] الاستحالة الرياضيّة للتطور: (عندما يقول الحساب: مستحيل)..! إذا كان التطور "ممكنًا"، فالمفترض أن الأرقام تؤيده.. لكن الأرقام -كعادتها - لا تجامل أحدًا:

١- استحالة تكوين بروتين واحد صدفة: البروتين يتكون من سلسلة أحماض أمينية مرتّبة ترتيبًا لا يسمح بالغلط.. احتمال أن تظهر سلسلة صحيحة بترتيب مصادفة، يشبه احتمال أن تكتب العواصف الرملية "ديوان المتنبي" على زجاج نافذة.. الأرقام الفعلية تقول: الاحتمال.. ١ ÷ رقم بعده مئات الأصفار (أصغر من احتمال أن تجد جميع ذرات الكون مصطفّة لتكتب كلمة "مرحبًا").. ومع ذلك يريدونك أن تصدق أن: ليس بروتينًا.. بل آلاف البروتينات.. ظهرت كلها بـ"الصدفة ! مع أن عمر الكون -كله - لا يكفي لإنتاج بروتين واحد !

٢- الخلية الأولى.. مصنع نووي مصغّر: الخلية الأولى ليست "فقاعة هلامية" كما كان داروين يظن.. هي شبكة معقدة من: بروتينات.. إنزيمات.. مضخات.. أغشية.. آلات نانوية.. تعليمات DNA، لو نقص عنصر واحد لن تعمل.. ومع ذلك فالملحد يريد صدفةً تنتج تركيبة تعمل - فقط - إذا اكتملت بنسبة ١٠٠%؟ هذا ليس "احتمالًا".. هذا سحر..!

٣- الزمن لا يحل المشكلة: يقولون: "مع مرور الوقت.. يمكن للمستحيل أن يحدث".. هذا التصريح وحده كفيل بمنحهم جائزة نوبل في السحر.. فالزمن يُتلف.. لا يخلق، ولو أنك وضعت قطع خردة في صندوق وأنتظرت مليون سنة: ستحصل على.. خردة قديمة.. الزمن لا يصنع طائرات.. ولا يصنع كائنات حية. =

(٦)- الأزمة الجديدة.. لكن سرعان ما ظهر سؤال أصعب: إذا كانت القوانين العمياء تفسر انتظام الكون، فمن أين جاءت هذه القوانين نفسها؟ وهنا انتقلت الأزمة من تفسير الموجودات إلى تفسير القوانين التي تحكم الموجودات.[١]

وهكذا يتضح أن الإلحاد الحديث لم يبدأ بإنكار الله عز وجل، بل بدأ بتحويل المنهج العلمي إلى فلسفة شاملة، فكان ذلك أصل سلسلة من الأفكار الإسعافية...!

لهذا لن أناقش الإلحاد بالطريقة المعتادة..

= مثال واحد فقط يكفي لنسف الفكرة: محرك الأسواط البكتيري: يدور ١٠٠,٠٠٠ دورة في الدقيقة.. تحكم في الاتجاه.. يتكون من ٤٠ جزءًا.. لو غاب جزء واحد.. الآلة لا تعمل

هذا هو التصميم الشرطي: إما الكلّ.. أو لا شيء.

العشوائية لا تنشئ نظامًا يشترط "الكمال التام" قبل أن يعمل.

٤- التعقيد غير القابل للاختزال (العُقَّدَة التي تخنق التطور): إذا كان النظام يحتاج جميع أجزائه كي يعمل، فلا يمكن أن يتكوّن تدريجيًا.. هذا وحده.. كفيل بجعل التطور العشوائي أسطورة جميلة.

٥- لو كان التطور عشوائيًا.. لماذا لا نرى "التجارب الفاشلة"؟! العشوائية تنتج ملايين المحاولات الخاطئة مقابل محاولة واحدة صحيحة.. لكن السجل الأحفوري يخلو من "الكائنات الفاشلة"..!! لا ترى: نصف عين تسرب الضوء، ولا نصف جناح لا يطير (نصف جناح لا يفيد.. إلا لو أرادت "الصدفة" أن تجرب القفز الانتحاري)، ولا نصف قلب لا يضخ.. (إما كائن كامل.. أو لا شيء) !

هذا ليس "عشوائية".. هذا تصميم.

[١] ألفت انتباهك إلى أمر: في كل مذهب تقريبًا توجد فكرة مركزية، لكن الذي يحفظ بقاء المذهب ليس هذه الفكرة وحدها، بل ما أسميه "الحزام الإسعافي": مجموعة من الأفكار التي تُستدعى كلما ظهرت أزمة جديدة لحماية الفكرة الأم.

وأحسب أن هذا سيكون قانونًا عامًا يمكننا تطبيقه لاحقًا على اليهودية، النصرانية، الصهيونية، الرافضة، المعتزلة، الأشاعرة، العلموية، والفرق الباطنية، وغيرها... فبدل دراسة الأقوال متفرقة، ندرس كيف تولد الأفكار دفاعًا عن أفكار أخرى، وهذا المنهج يكشف البنية الداخلية للمذاهب أكثر مما تكشفه مجرد كتب التاريخ أو العقائد.

بل سأُشرّحه من الداخل..

وأكشف كيف ولّدت كل أزمة فكرة.. ثم كيف احتاجت تلك الفكرة إلى فكرة أخرى لتحميها..،..،.

فالإلحاد اليوم يُشبه رجلًا يحاول سدّ الثقوب بيديه.. كلما أغلق ثقبًا من هنا، انفجر عشرة من هناك !

من "الطبيعة تفسر الظواهر" إلى "الطبيعة تفسر نفسها"

كيف انتقل الفكر من تفسير الظواهر الطبيعية إلى الاعتقاد بأن الطبيعة نفسها لا تحتاج إلى تفسير؟

وهنا تبدأ العقدة الثانية.

الأزمة: نجح العلم نجاحًا باهرًا في تفسير كثير من الظواهر: سقوط الأجسام.. حركة الكواكب.. البرق والرعد.. الأمراض.. الكيمياء.. الوراثة...

فكلما تقدم العلم، انكمشت مساحة الجهل.. وهنا بدأ يتولد انطباع نفسي قوي: إذا كان العلم يفسر كل ظاهرة جديدة، فلماذا لا يفسر كل شيء في النهاية؟!

لاحظ أن هذه ليست نتيجة علمية، بل توقع مبني على نجاحات متتالية.

الفكرة: هنا ظهرت فكرة يمكن صياغتها هكذا: كل سؤال لم نجد له جوابًا اليوم، سيجيب عنه العلم غدًا..! وهذه الفكرة كانت شديدة الجاذبية؛ لأنها انسجمت مع روح العصر، عصر الاكتشافات الكبرى !

المكسب: أعطت هذه الفكرة ثقة كبيرة بالبحث العلمي، وشجعت على عدم التسرع في نسبة الظواهر المجهولة إلى أسباب غير مدروسة.

ومن هذه الجهة، كان لها أثر إيجابي في دفع عجلة الاكتشاف.

الثمن: لكن هنا وقع الخلط بين نوعين من الأسئلة: أسئلة داخل الكون: كيف تتكون النجوم؟ كيف يعمل الدماغ؟ كيف تنتقل الجينات؟

وأسئلة عن الكون نفسه: لماذا يوجد كون أصلًا؟ ولماذا توجد قوانين قابلة

للوصف؟ ولماذا يوجد شيء بدلًا من لا شيء؟...

العلم التجريبي بارع في النوع الأول، أما النوع الثاني فهو سؤال ميتافيزيقي وفلسفي..

فإذا أجاب العلم عن "كيف يعمل الكون"، لم يكن ذلك جوابًا عن "لماذا يوجد الكون".

وهنا ظهر أول فراغ فلسفي في البناء.

الفكرة الإسعافية: ولسد هذا الفراغ، بدأ يظهر شعار جديد، صريحًا عند بعض المفكرين أو ضمنيًا عند آخرين: إذا لم نحتج إلى الله في تفسير ظاهرة معينة، فلا حاجة إليه أصلًا !!

وهذا ما يسميه بعض الفلاسفة الاستغناء المنهجي الذي تحول إلى استغناء وجودي.. أي أن قاعدة نافعة في المختبر تحولت إلى دعوى عن حقيقة الوجود كله !

الأزمة الجديدة: لكن هذه الفكرة اصطدمت بسؤال لم تستطع تجاوزه: القانون الطبيعي يفسر ما يحدث، لكنه لا يفسر وجود القانون نفسه.

فقانون الجاذبية يصف كيفية انجذاب الكتل، لكنه لا يجيب: لماذا توجد الجاذبية أصلًا؟ ولماذا لها هذه القيمة دون غيرها؟ ولماذا يمكن للعقل البشري أن يصوغها في معادلات رياضية دقيقة؟

وهنا انتقلت الأزمة من الظواهر إلى القوانين، ومن تفسير الأشياء إلى تفسير الإطار الذي تعمل فيه الأشياء.

وهذا الانتقال هو الذي سيمهد لظهور واحدة من أكبر الأزمات في

الإلحاد الحديث، وهي الضبط الدقيق للكون..

حيث لم يعد السؤال: كيف تعمل القوانين؟ بل أصبح: لماذا جاءت القوانين والثوابت بهذه الصورة التي تسمح أصلًا بوجود كون قابل للحياة؟

إذن: نجاح العلم في تفسير الظواهر لا يستلزم أن الطبيعة تفسر نفسها..

حدث انتقال من منهج علمي مشروع إلى دعوى فلسفية أوسع.

هذا الانتقال خلق أزمة جديدة: تفسير وجود القوانين نفسها.

لماذا قوانين الكون هكذا؟

السؤال بقي معلقًا: من أين جاءت قوانين الطبيعة؟

لكن مع تقدم الفيزياء في القرن العشرين، أصبح السؤال أدق وأخطر.

لم يعد السؤال: لماذا توجد قوانين؟

بل أصبح: لماذا جاءت القوانين بهذه القيم تحديدًا؟

وهنا تبدأ أزمة إلحادية..

الأزمة: اكتشف الفيزيائيون أن الكون لا تحكمه قوانين فحسب، بل تحكمه أيضًا ثوابت أساسية: مثلًا: شدة الجاذبية.. شدة القوة الكهرومغناطيسية.. القوة النووية القوية.. القوة النووية الضعيفة.. نسبة كتل بعض الجسيمات.

وليس المهم الآن عددها أو أسماؤها، المهم أن الحسابات الفيزيائية تشير إلى أن تغيير كثير من هذه القيم تغييرًا يسيرًا قد يجعل الكون غير صالح لتكوّن النجوم، أو العناصر الثقيلة، أو الكواكب، أو الحياة كما نعرفها.

وهنا ظهر السؤال الذي لم يكن مطروحًا من قبل: لماذا جاءت هذه الثوابت على هذا النحو؟!

الفكرة: في البداية، حاول بعض الملاحدة الاكتفاء بقول: هكذا هي القوانين، ولا حاجة إلى سؤال آخر.

لكن هذا لم يكن جوابًا، بل كان إيقافًا للسؤال.

إذ لو سأل أحد: لماذا درجة غليان الماء مائة مئوية عند ضغط معين؟

فلن يكون الجواب العلمي: لأنها هكذا !

بل يُبحث عن تفسير.

فلماذا يجوز إيقاف السؤال عند قوانين الكون نفسها؟!

المكسب: هذا الموقف حافظ مؤقتًا على الفكرة الأم: الطبيعة مكتفية بنفسها؛ لكنه لم يقدم تفسيرًا، وإنما أجّل المشكلة.

الثمن: بدأ كثير من الفلاسفة – ومنهم غير المتدينين – يلاحظون أن السؤال مشروع.. فإذا كان العقل يسأل عن سبب كل ظاهرة، فمن الطبيعي أن يسأل أيضًا عن سبب انتظام القوانين وثوابتها.

وبذلك لم تعد المشكلة في وجود الكون فقط، بل في قابلية الكون للحياة والفهم.

الفكرة الإسعافية: هنا بدأ يظهر واحد من أشهر الحلول الإسعافية في الإلحاد المعاصر: فرضية الأكوان المتعددة.

وفكرتها باختصار: إذا كان هناك عدد هائل جدًا من الأكوان، ولكل واحد منها قوانين أو ثوابت مختلفة، فمن الطبيعي إحصائيًا أن يوجد كون واحد – أو أكثر – يصلح للحياة.. ونحن موجودون في هذا الكون؛ لأننا لا نستطيع أن نوجد في كون لا يسمح بوجودنا.

لاحظ هنا أن الفكرة الإسعافية لم تفسر لماذا توجد منظومة تولّد أكوانًا متعددة، وإنما نقلت السؤال إلى مستوى أعلى: إذا كانت هناك آلة تنتج أكوانًا لا حصر لها، فمن أين جاءت هذه الآلة؟ ولماذا تعمل وفق قوانين تسمح بإنتاج تلك الأكوان..؟!

أي أن الأزمة لم تُحل، بل تغيّر موضعها.

الأزمة الجديدة: وهكذا انتقل الإلحاد من سؤال: لماذا هذا الكون؟ إلى سؤال أوسع: لماذا توجد منظومة قادرة على إنتاج الأكوان أصلًا؟

وهنا يتكرر النمط الذي بدأنا نرصده: ((أزمة.. فكرة.. مكسب.. ثمن.. فكرة إسعافية.. أزمة أعمق)).

ملاحظة منهجية: في الإلحاد، كثيرًا ما تأتي الأفكار الإسعافية في صورة فرضيات فلسفية تستند إلى تصورات علمية أو تتجاوز ما أثبته العلم؛ ولذلك ينبغي أن نفرق دائمًا بين: ما تقوله الفيزياء فعلًا.. وما يُبنى فلسفيًا على بعض نتائج الفيزياء.

فهذا التفريق سيجنبنا نسبة أمور إلى العلم لم يقل بها العلم نفسه.

وهكذا.. اكتشاف الضبط الدقيق جعل السؤال عن أصل القوانين والثوابت أكثر إلحاحًا.. كان أبرز الحلول الإسعافية هو فرضية الأكوان المتعددة.. لكن هذه الفرضية – حتى إذا افترضنا إمكانها – لا تُغني عن السؤال الأعم: لماذا توجد منظومة تنتج تلك الأكوان؟!

هل يمكن الوثوق بالعقل إذا كان مجرد نتاج للمادة؟

حتى الآن كان الإلحاد يناقش العالم الخارجي.. أما الآن فسوف يلتفت إلى الأداة التي يستخدمها في كل نقاش: العقل.

وهنا تبدأ الأزمة: إذا كانت الفكرة الأم هي: لا يوجد إلا المادة وقوانينها، فإن العقل نفسه يصبح – بحسب هذا التصور – نتيجة لتفاعلات كيميائية وعصبية نشأت عبر تاريخ طويل من التطور.. أي أن أفكارك، واستدلالاتك، وحتى اقتناعك بالإلحاد نفسه، ليست في أصلها إلا حالات فيزيائية داخل الدماغ.

وهنا يظهر سؤال شديد العمق: لماذا أثق بأن هذه التفاعلات تنتج الحقيقة، لا مجرد سلوك نافع للبقاء..؟![1]

الفكرة الإسعافية: كان الجواب الأول: الانتخاب الطبيعي أبقى الأدمغة التي ترى الواقع كما هو.. أي أن الكائن الذي يدرك العالم إدراكًا صحيحًا ينجو أكثر من غيره !

للوهلة الأولى يبدو الجواب مقنعًا.

المكسب: هذه الفكرة تربط بين التطور وبين نشأة القدرات العقلية، وتقدم تفسيرًا طبيعيًا لكيفية تطور الإدراك دون افتراض تدخل فوق طبيعي؛ ولذلك كانت جذابة لكثير من أنصار الطبيعانية.

---

[1] الملحد يقول إن العقل نتاج عشوائية تطورية.

طيب.. كيف نثق بعقل نتج بطريقة غير موجَّهَة ولا تستهدف الحقيقة؟

هذه حُجّة (ألفن بلانتينغا) الشهيرة، وهي قنبلة فلسفية.

الثمن: لكن هنا بدأ الاعتراض الفلسفي: فالانتخاب الطبيعي – وفق النظرية نفسها – لا يختار المعتقدات الصحيحة، بل يختار السلوك الذي يزيد فرص البقاء والتكاثر.. وقد ينتج السلوك النافع عن معتقد صحيح، وقد ينتج عن معتقد خاطئ أيضًا.

مثال مبسط: تخيل إنسانًا يعتقد أن كل النمور آلهة مقدسة، ولذلك يهرب منها دائمًا احترامًا لها.

وآخر يعتقد أنها حيوانات مفترسة، فيهرب منها خوفًا منها.

كلاهما ينجو.

فالانتخاب الطبيعي يهتم بالنجاة، لا بسبب النجاة !

ومن هنا قال بعض الفلاسفة: إن الربط بين التطور وموثوقية العقل ليس مباشرًا كما يبدو.

الفكرة الإسعافية: هنا بدأ يقال: ليس المطلوب أن يكون العقل معصومًا، بل أن يكون موثوقًا بدرجة كافية.

وهذا جواب أخف من الأول، لكنه يفتح بابًا جديدًا؛ لأن السؤال يصبح: كيف عرفت أنه موثوق بدرجة كافية؟! إن كان الحكم نفسه صادرًا عن العقل الذي تحاول إثبات موثوقيته، فقد يبدو الاستدلال دائريًا.

الأزمة الجديدة: وهنا نصل إلى مفارقة دقيقة: إذا كان العقل مجرد نتيجة عمليات مادية عمياء هدفها البقاء، فإن الثقة في جميع الاستدلالات – بما فيها الاستدلال المؤدي إلى الإلحاد – تحتاج إلى تبرير !

وبعبارة أخرى: الإلحاد لا يستخدم العقل فقط، بل يحتاج أيضًا إلى تبرير

الثقة بالعقل، وهذا يختلف عن مجرد استخدامه؛ ولهذا ناقش هذه القضية عدد من الفلاسفة، مؤمنين وغير مؤمنين، ورأوا أنها من أعقد الأسئلة في فلسفة العقل والمعرفة.

إذن: الطبيعانية تجعل العقل نتاجًا لعمليات مادية وتطورية.

ظهر سؤال: هل يضمن ذلك الوصول إلى الحقيقة أم إلى ما يفيد البقاء فقط؟

جاءت أفكار إسعافية لتبرير الثقة بالعقل، لكنها بدورها أثارت نقاشات فلسفية حول أساس هذه الثقة.

من أين جاء "ينبغي"؟

الإنسان قد يعيش دون أن يفهم ميكانيكا الكم، لكنه لا يستطيع أن يعيش دون أن يحكم على الأفعال بأنها خير أو شر.

لاحظ أننا سنترك الفيزياء والفلك، وندخل إلى قلب الإنسان.

الأزمة: إذا كان الكون كله مادة، والإنسان مجرد نتيجة تطور أعمى، فالسؤال ليس: لماذا يتصرف الناس بأخلاق؟ بل: لماذا ينبغي لهم أن يتصرفوا بأخلاق؟ وهنا يجب أن نفرق بين سؤالين: لماذا يتعاون الناس؟ ولماذا يكون التعاون واجبًا؟ الأول قد يجيب عنه علم الأحياء أو علم النفس.. أما الثاني، فهو سؤال فلسفي.

الفكرة: قالت الطبيعانية: الأخلاق نتاج التطور؛ فالرحمة، والتعاون، والصدق... كلها صفات ساعدت الجماعات على البقاء.

إذن لا حاجة إلى مصدر متجاوز للطبيعة.

المكسب: قدمت هذه الفكرة تفسيرًا معقولًا لكيفية انتشار بعض السلوكيات الأخلاقية.. فمن الممكن أن يفسر التطور لماذا تميل الأم إلى حماية طفلها، أو لماذا ينجح التعاون داخل الجماعة.

وهذا جانب لا ينبغي إنكاره.

الثمن: لكن سرعان ما ظهر سؤال لم يكن هذا التفسير قادرًا على الإجابة عنه: التطور قد يفسر: لماذا نشعر أن القتل سيئ.. لكنه لا يثبت: أن القتل سيئ حقًا..!

وهنا الفرق بين: تفسير الاعتقاد، وإثبات صحة الاعتقاد.

فلو أثبت عالم نفس أن سبب اعتقادك بالعدل هو التربية، فهذا لا يثبت أن العدل غير موجود.. إنه يفسر كيف وصلت إلى الاعتقاد، لا هل الاعتقاد صحيح.. وهذه نقطة محورية.

الفكرة الإسعافية: هنا ظهرت عدة محاولات، منها: الأخلاق عقد اجتماعي.. الأخلاق توافق إنساني.. الأخلاق ما يزيد الرفاه.. الأخلاق ما يقلل الألم، ولكل محاولة قوتها وضعفها، لكنها جميعًا واجهت سؤالًا واحدًا: ولماذا يجب عليَّ أن ألتزم بهذا العقد أو هذا التوافق إذا استطعت أن أخالفه دون أن أعاقب؟!

أي أن المشكلة انتقلت من تفسير الأخلاق إلى إلزام الأخلاق.

الأزمة الجديدة: وهنا ظهر السؤال الكبير: إذا لم تكن هناك حقيقة أخلاقية موضوعية، فبأي معيار نصف: الإبادة الجماعية بأنها شر؟ تعذيب الأطفال بأنه ظلم؟ الخيانة بأنها قبيحة؟ هل هي مجرد آراء؟ أم حقائق؟

فإن كانت آراء، فلماذا نستنكر من يخالفها؟ وإن كانت حقائق، فمن أين جاءت في كون مادي محض..؟!

وهنا وجد الإلحاد نفسه أمام مفترق طرق:-

إما القول بوجود قيم أخلاقية موضوعية، فيحتاج إلى تفسير مصدرها.

وإما إنكار موضوعيتها، فيواجه كارثة عدم تأسيس الإلزام الأخلاقي.[1]

---

[1] في الإلحاد: لا حرية، لا اختيار، لا مسؤولية، لا ذنب، لا عقاب؛ لأن كل شيء نتاج تفاعلات فيزيائية.

فكيف يلوم الملحد أي شخص على أي فعل؟

هذا الباب ينسف الإلحاد أخلاقيًا وقانونيًا.

لماذا يوجد شيء أصلًا؟

جميع الأزمات السابقة كانت ترجع في النهاية إلى سؤال واحد: من أين جاءت القوانين؟ من أين جاءت الأخلاق؟ من أين جاءت الثقة بالعقل؟ كلها ترجع إلى سؤال أعم: لماذا يوجد شيء بدلًا من لا شيء؟!

وهنا نصل إلى أصل الأصول:-

الأزمة: إذا كانت الطبيعة هي كل الموجود، فهناك سؤال لا يستطيع العلم التجريبي أن يتجاوزه: لماذا وُجدت الطبيعة أصلًا؟

لاحظ أننا لا نسأل: كيف تطور الكون؟ ولا: ماذا حدث بعد الانفجار العظيم؟

بل نسأل: لماذا يوجد الكون أصلًا؟ وهذا سؤال يسبق الفيزياء كلها.

الفكرة: كان أول جواب إسعافي: الكون موجود، وهذه حقيقة أولية لا تحتاج إلى تفسير.. أي أن الكون يصبح هو "المعطى النهائي".

المكسب: بهذا الجواب حافظ الإلحاد على فكرته الأم: لا حاجة إلى موجود خارج الطبيعة.. وبها يتوقف التسلسل عند الكون نفسه.

الثمن: لكن هنا ظهر سؤال فلسفي بالغ القوة: إذا كان الملحد يطالب المؤمن دائمًا بتفسير وجود الله، فمن حق المؤمن أن يسأل: ولماذا لا نطالب الكون بالتفسير أيضًا؟

فإن قيل: لأن الكون هو الحقيقة النهائية.. أمكن أن يقال: ولماذا يكون الكون هو الحقيقة النهائية، لا الخالق؟!

أي أن النقاش لم يعد بين: وجود الله أو عدمه.

بل أصبح بين: ما الذي يحق له أن يكون الحقيقة التي يتوقف عندها التفسير؟

وهنا يدخل الطرفان في سؤال فلسفي، لا علمي.

الفكرة الإسعافية: ومن هنا ظهرت محاولات متعددة، مثل: الكون أزلي.. أو الزمن نفسه بدأ مع الكون، فلا معنى للسؤال "قبل".. أو توجد دورة أزلية من الأكوان.. أو يوجد فراغ كمي تنشأ منه الأكوان.

لكن.. تأمل شيئًا مهمًا: كل هذه الأجوبة – إذا صحت نماذجها الفيزيائية – لا تجيب عن السؤال الأصلي: لماذا يوجد هذا الواقع، أيًّا كان شكله، بدلًا من العدم..؟!!

فإذا قلت: "نشأ الكون من فراغ كمي"، عاد السؤال: ولماذا يوجد الفراغ الكمي؟

وإذا قلت: "من أكوان سابقة"، عاد السؤال: ولماذا توجد تلك الأكوان؟

إذن الأزمة لم تختف، بل صعدت درجة أخرى.

الأزمة الجديدة: وهنا تظهر مفارقة لافتة: الإلحاد كان يريد التخلص من سؤال: لماذا يوجد الله؟ فوجد نفسه أمام سلسلة لا تنتهي من الأسئلة: لماذا يوجد الكون؟ ولماذا توجد قوانينه؟ ولماذا توجد البنية التي تنتج الأكوان؟ ولماذا يوجد أي شيء أصلًا؟

وكأن السؤال الذي حاول إخراجه من الباب عاد من النافذة..!

اكتشاف القانون الحاكم

القانون.. الذي يحكم جميع الأزمات السابقة.

ظهرت أزمة تفسير الكون.. فخرجت فكرة.

ثم ظهرت أزمة تفسير القوانين.. فخرجت فكرة أخرى.

ثم أزمة الضبط الدقيق.. ثم العقل.. ثم الأخلاق.. ثم أصل الوجود.

كل مرة يحدث الشيء نفسه.

إذن ما هو القانون؟ كل تفسير طبيعي يحل مشكلة جزئية، لكنه ينقل سؤال التفسير إلى مستوى أعمق.

تأمل الأمثلة: الجاذبية تفسر سقوط الحجر، لكنها لا تفسر وجود قانون الجاذبية..

وقانون الجاذبية لا يفسر لماذا له هذه القيمة..

وقيمة الجاذبية لا تفسر لماذا توجد قوانين أصلًا...

إذن.. السؤال لا يموت.. بل يصعد درجة.

الفكرة الإسعافية الكبرى: وهنا ظهر أخطر تحول في الإلحاد الحديث.

لم يعد الهدف: إيجاد الجواب النهائي.. بل أصبح: تأجيل السؤال النهائي..!![1]

صار يكفي أن يوجد تفسير طبيعي جديد، حتى لو كان هو نفسه محتاجًا إلى تفسير آخر..!!

---

[1] الإلحاد إذن.. عقيدة مؤجلة الدفع.. ليس عنده جوابٌ اليوم، لكنه يعدنا أن يكون لديه جوابٌ في الغد. وكلما جاء الغد.. قال: غدًا آخر.. (فقط لأنه لا يمتلك الشجاعة لإشهار إفلاسه).

مثال يوضح ذلك: تخيل رجلًا يسأل: من بنى هذا القصر؟ فقيل له: العمال.

فيقول: ومن جاء بالعمال؟ المقاول.

ومن جاء بالمقاول؟ الشركة.

ومن أنشأ الشركة؟...

كل جواب صحيح في موضعه.. لكنه لا يجيب عن السؤال الأول.. بل ينقله إلى مستوى أعلى.. وهذا ليس عيبًا في الجواب الجزئي، ولكنه يعني أن السؤال الأصلي ما زال قائمًا.

الإلحاد لا يجيب عن هذه الأسئلة.. بل يعيد صياغة السؤال في كل مرحلة. وهذا فرق كبير؛ فالجواب الحقيقي يُنهي السؤال.. أما إذا عاد السؤال في صورة جديدة، فهذا يعني أن النسق ما زال يبحث عن نقطة التوقف.

الأفكار الإسعافية في الإلحاد لا تُغلق باب السؤال، وإنما تؤجل موضعه.

لقد اكتشفنا قانونًا قد يفسر معظم الأزمات السابقة: كلما قُدم تفسير طبيعي لمشكلة، انتقل سؤال التفسير إلى مستوى أعمق.. وهذا لا يبطل التفسير الجزئي، لكنه يعني أنه لا يغلق السلسلة التفسيرية.

هل تنتهي سلسلة "لماذا؟"

هل يستطيع أي مذهب أن يوقف سلسلة "لماذا؟" عند نقطة لا تحتاج بعدها إلى سؤال؟ فإن وجدنا ذلك، فقد اقتربنا من لب الفلسفة كلها.

الضابط الأكبر: كل معيار نحتج به على مذهب، يجب أن نكون مستعدين لتطبيقه على المذهب الذي نعتقده نحن أيضًا.. فإن صمد المعيار أمام الجميع، كان معيارًا صالحًا.. وإن كان يعمل مع الخصوم فقط، فهو ليس معيارًا، بل أداة جدل.

وهذا هو المنهج الذي كان يسلكه كبار المحققين؛ إذ يبدأون بتحرير محل النزاع، ثم يزنون الأقوال بميزان واحد.

وهكذا وصلنا إلى السؤال الحاكم: هل يستطيع أي نسق فكري أن يوقف سلسلة "لماذا؟"؟ وهنا ينبغي أن نفرق بين نوعين من التوقف:

النوع الأول: التوقف الاعتباطي: أن تقول: الأمر هكذا.. ولا تسأل..!!

هذا ليس جوابًا، بل إغلاقٌ للسؤال.. فلو سأل طفل: لماذا سقط الحجر؟ فقلت: لأنه يسقط..! فأنت لم تفسر شيئًا، وكذلك إذا قيل: الكون موجود.. فقط، فهذا يكون موقفًا فلسفيًا، لكنه ليس تفسيرًا بالمعنى المعتاد

النوع الثاني: التوقف عند ما يفسر ولا يحتاج في نفسه إلى تفسير من النوع نفسه، وهنا ندخل إلى قلب الفلسفة..

عبر التاريخ، رأى كثير من الفلاسفة أن سلسلة التفسير لا يمكن أن تستمر إلى غير نهاية، وإلا لما فُسر شيء أصلًا..

لكنهم اختلفوا: فمنهم من جعل نقطة التوقف هي المادة، ومنهم من

جعلها القوانين، ومنهم من جعلها الله ﷻ.

إذن، الخلاف الحقيقي ليس في وجود نقطة توقف، بل في تعيينها.

وهذه الملاحظة مهمة جدًا.. وستتضح أهميتها أكثر..

الأزمة: إذا قال الملحد: سأتوقف عند الكون.. فيسأله المؤمن: ولماذا الكون هو نقطة التوقف؟ وإذا قال المؤمن: سأتوقف عند الله ﷻ.. فيسأله الملحد: ولماذا الله هو نقطة التوقف؟

إذن، أصبح السؤال الجديد: ما صفات الشيء الذي يصح أن يكون نهاية لسلسلة التفسير؟

لاحظ أننا لم نعد نسأل عن الاسم، بل عن الصفات اللازمة.

الفكرة: وهنا.. بدل أن نقول: هل الله موجود؟ أو: هل المادة أزلية؟

لنبدأ بالسؤال الآتي: ما الشروط التي يجب أن تتوافر في "الحقيقة النهائية" التي يتوقف عندها التفسير؟

ثم بعد أن نستخرج هذه الشروط، ننظر: أي التصورات يحققها؟ من يملك تفسيرًا يحقق شروط الحقيقة النهائية؟

وبهذا المنهج؛ نحن لا نبدأ باسم معين، بل نبدأ بالصفات المطلوبة.. وهكذا نبني البرهان من الصفر.

الشروط الأولية: يبدو أن الحقيقة النهائية ينبغي أن تكون: غير محتاجة إلى غيرها في وجودها.. قادرة على تفسير ما سواها.. غير متناقضة في ذاتها.. لا تؤجل السؤال إلى شيء آخر.

لماذا أرى أن هذا هو المنعطف الحقيقي؟ لأن معظم المناظرات تبدأ

بالسؤال: هل تؤمن بالله؟ بينما السؤال الأعمق هو: ما الذي يصلح أن يكون الحقيقة التي ينتهي عندها التفسير؟

فإذا اتفقنا على الشروط، أصبح الخلاف بعد ذلك أضيق بكثير.

قبل أن نسأل: ما الحقيقة؟ يجب أن نسأل: ما معنى التفسير؟

الآن نترك مرحلة تشخيص المرض، ونبدأ مرحلة بناء الميزان.. وهذا أخطر؛ لأن الميزان إذا اختل، فسدت جميع النتائج، ولو كانت المقدمات صحيحة.

كلنا نستخدم كلمة "تفسير" طوال الوقت، وكأن معناها واضح، بينما هي في الحقيقة مفتاح القضية كلها.. فإذا لم نحدد معناها، وقعنا في خلط كبير.

الأزمة: حين يسأل الإنسان: لماذا يغلي الماء؟ ويجيب الفيزيائي: بسبب انتقال الطاقة وبلوغ درجة الغليان.. فقد حصل على تفسير.

لكن إذا سأل: ولماذا توجد قوانين تسمح أصلًا بانتقال الطاقة؟ فأجابه الفيزيائي بالمعادلات نفسها، فإنه لم يجب عن السؤال الجديد، بل بقي في المستوى نفسه.

إذن كلمة "لماذا" ليست دائمًا من نوع واحد.. فهناك ثلاثة مستويات للتفسير، وكثير من المناظرات تفشل لأنها تخلط بينها.

المستوى الأول: التفسير الوصفي: يجيب عن: كيف يحدث الشيء؟

مثل: كيف تمطر السماء؟ كيف ينبض القلب؟ كيف تنتقل الكهرباء؟

وهذا هو مجال العلوم الطبيعية.. ولا ينبغي أن نحمّله أكثر مما يحتمل.

المستوى الثاني: التفسير السببي: يجيب عن: ما السبب الذي أحدث هذا الأثر؟ مثل: لماذا اشتعل الحريق؟ لماذا تحطم الزجاج؟

وهنا نبحث عن العلل المباشرة.

المستوى الثالث: التفسير الوجودي: وهذا هو الذي نبحث عنه.

وهو يجيب عن: لماذا يوجد هذا الشيء أصلًا؟

مثل: لماذا يوجد الكون؟ لماذا توجد قوانين؟ لماذا يوجد عقل؟ لماذا يوجد نظام؟

وهذا سؤال لا يمكن للمعادلات وحدها أن تحسمه؛ لأنه سؤال عن أصل الإطار كله.

القفزة هنا: إذا نجح العلم في المستوى الأول، ظن بعضهم أنه أجاب عن المستوى الثالث.. وهذا انتقال غير لازم.

فإذا فسرت كيف يعمل المحرك، فأنت لم تفسر لماذا صُنعت السيارة، وإذا فسرت كيف يعمل الدماغ، فأنت لم تجب تلقائيًا عن سؤال: لماذا يوجد عقل قادر على إدراك الحقيقة؟

فلا يجوز أن نرفض تفسيرًا وجوديًا لأنه لا يجيب عن سؤال وصفي، ولا أن نقبل تفسيرًا وصفيًا على أنه جواب عن سؤال وجودي..

فلكل سؤال ميدانه.

ففي البداية.. الظن أن المشكلة بين المؤمن والملحد هي: هل الله موجود؟ لكن السؤال الأعمق هو: ما الحقيقة النهائية؟ والسؤال الأسبق منهما جميعًا: ما نوع السؤال الذي نطرحه أصلًا؟ فقد يختلف اثنان سنوات، وهما في الحقيقة لا يجيبان عن السؤال نفسه: أحدهما يجيب عن: كيف؟

والآخر يسأل لماذا؟

ثم يظن كل واحد أن الآخر عاجز عن الجواب.

ما الصفات التي يجب أن تتوافر في الحقيقة النهائية حتى يصح أن تتوقف عندها سلسلة (لماذا)؟

بعد أن ميزنا بين أنواع التفسير، سوف أبدأ في استخراج صفات الحقيقة النهائية واحدةً واحدةً، دون أن أُسمي هذه الحقيقة بعد..!

وهذا أعدل – مع الخصم – من أن أبدأ باسم ثم أبحث له عن الأدلة !

وسوف أسأل: هل يجب أن تكون واجبة الوجود؟ هل يجب أن تكون واحدة؟ هل يجب أن تكون عاقلة؟ هل يجب أن تكون قادرة؟

وهل هذه الصفات استنتاجات عقلية، أم مجرد افتراضات؟

وهنا يبدأ البناء بدلًا من الهدم.

فليس كل تفسير من النوع نفسه.. والخلط بين: كيف؟ و: لماذا؟ ليس منهجًا علميًا أصلًا.. ثم قبل الحكم على أي رؤية للعالم، ينبغي أن نحدد نوع السؤال الذي نحاول الإجابة عنه.

الصفة الأولى: هل يجب أن تكون الحقيقة النهائية "واجبة"؟

هذه أول صفة، وأظنها أم الصفات كلها.

الأزمة: افترض أن شخصًا قال: الحقيقة النهائية هي الكون.. فنقول له: لماذا الكون موجود؟ فيجيب: لأن هناك كونًا قبله.. فنقول: ولماذا ذلك الكون؟ فيقول: كون قبله... وهكذا إلى ما لا نهاية.

السؤال هنا ليس: هل يمكن تصور سلسلة طويلة؟ بل: هل السلسلة نفسها تفسر وجود أي حلقة فيها؟

مثال: تخيل أنك سألت: من أين استعار أحمد هذا الكتاب؟ قالوا: من

خالد.. وخالد؟ من سعيد.. وسعيد؟ من محمود.. واستمرت السلسلة ألف اسم، هل عرفت في النهاية: من أين جاء الكتاب أول مرة؟ لا.. لقد فسرت انتقال الكتاب بين الأشخاص، لكنك لم تفسر أصل وجوده في السلسلة.

الفكرة: هنا لا بد أن تنتهي السلسلة إلى موجود ليس مستعارًا.. أي: موجود لا يأخذ وجوده من غيره.. وهذا ما اصطلح الفلاسفة على تسميته: واجب الوجود.

لاحظ أنني لم أقل: الله، ولا: الخالق، ولا أي اسم آخر.. أنا أصف فقط.

لماذا "واجب"؟ لأن كل ما يحتاج إلى غيره، يبقى السؤال قائمًا فيه: ولماذا وجد؟ أما إذا وصلنا إلى شيء وجوده ليس معتمدًا على غيره، فقد توقفت هذه السلسلة من الأسئلة من حيث نوعها.

اعتراض متوقع: قد يقول قائل: ولماذا لا يكون الكون نفسه واجب الوجود؟ وهذا سؤال مشروع في ميدان البحث، ويجب أن نختبره.. وهذا هو الفرق بين الباحث والمحامي.

الاختبار: لكي يكون شيء واجب الوجود، ينبغي أن يكون: غير قابل للعدم.. غير معتمد على غيره.. غير مركب تركيبًا يحتاج إلى تفسير.. لا يطرأ عليه ما يدل على افتقاره إلى سبب خارجي.

وهنا يبدأ الامتحان.

هل تنطبق هذه الصفات على الكون؟ أم على المادة؟ أم على القوانين؟ أم على شيء آخر؟

سوف أفحص هذه الاحتمالات واحدًا واحدًا.

لاحظ هنا أن.. الخلاف الحقيقي ليس: هل يوجد واجب وجود؟ بل: ما الذي يستحق هذا الوصف؟ فكل رؤية للعالم تقريبًا تتوقف عند شيء تعتبره الحقيقة النهائية.

الاختلاف ليس في وجود نقطة توقف، بل في تعيينها.

وهنا سوف أسأل سؤالًا قد يبدو غريبًا لأول وهلة: هل يمكن أن يكون "المركب" واجب الوجود؟ وهذا السؤال سيقودنا إلى نتائج عجيبة؛ لأننا سنكتشف أن التركيب – أيًّا كان نوعه – يثير سؤالًا جديدًا: لماذا اجتمعت هذه الأجزاء بهذه الصورة؟ وهنا سنبدأ اختبار المرشحين واحدًا بعد الآخر، لا بالعاطفة، بل بالميزان الذي بنيته.

لأن سلسلة الموجودات المحتاجة لا تفسر نفسها بمجرد إطالتها.. إذا كان لا بد من نقطة يتوقف عندها التفسير، فينبغي أن تكون غير محتاجة إلى غيرها.. وقد سمى الفلاسفة هذا الوصف: واجب الوجود.

ولم أحسم بعد من هو واجب الوجود؛ بل بدأت فقط في استخراج شروطه.

فإذا وجدنا أن صفةً ما لازمة للحقيقة النهائية، فلن نأخذها من دين ولا من فلسفة، بل من مقتضى السؤال نفسه: هل يمكن أن يكون المركب هو الحقيقة النهائية؟

هل يمكن أن يكون المركب هو الحقيقة النهائية؟

ندخل هنا إلى المنطقة التي كان ابن سينا يسميها "الواجب والممكن"، وكان ابن تيمية يعيد تحريرها، ويصحح كثيرًا من مساراتها.. وسأحاول أن أستفيد من الجميع، دون أن أجعل كلام أحدٍ حاكمًا على البرهان نفسه.

اتفقنا أن الحقيقة النهائية ينبغي أن تكون غير مفتقرة إلى غيرها، وهنا أسأل: هل يمكن أن تكون هذه الحقيقة شيئًا مركبًا؟

الأزمة: لنفترض أن أحدهم قال: الحقيقة النهائية هي هذا البناء المكوَّن من أجزاء.. نسأله: هل كان يمكن أن تكون الأجزاء مرتبة بطريقة أخرى؟

إن قال: نعم.. فقد اعترف بأن هذا الترتيب ليس لازمًا.

وإن قال: لا.. سألناه: ولماذا كان هذا الترتيب وحده لازمًا؟

فعاد السؤال من جديد.

مثال: تأمل ساعة ميكانيكية.. ليست المشكلة أنها مكونة من تروس.

بل المشكلة أن هذه التروس اجتمعت على هيئة مخصوصة.

والسؤال ليس: لماذا يوجد الترس؟ بل: لماذا اجتمع هذا الترس مع ذاك، وبهذا الترتيب، وبهذه النِّسَب؟

فإن كان كل جزء مستقلًا عن الآخر، فإن اجتماعها يحتاج إلى تفسير.

الفكرة: كل مركب مفتقر إلى ما يفسر تركيبه.. ولاحظ أني لم أقل: كل مركب مخلوق.. بل: كل تركيب يفتح سؤالًا جديدًا.

كثير من الكتب تختصر البرهان فتقول: كل مركب محتاج.. لكنها لا تشرح لماذا.. وأحسب أن "لماذا" أهم من النتيجة.

فالسبب ليس مجرد وجود أجزاء.. بل لأن العقل يسأل عن سبب اختصاص هذه الأجزاء بهذا الاجتماع دون غيره.

فإذا كان هناك أكثر من احتمال، فلماذا تحقق هذا الاحتمال بالذات؟

الأزمة الجديدة: وهنا نلتفت إلى أن الكون.. ليس مجرد "شيء".. بل هو: جسيمات.. قوى.. قوانين.. علاقات.. ثوابت.. بنى رياضية.

أي أنه شبكة هائلة من العلاقات.

وهنا يعود السؤال: لماذا جاءت هذه العلاقات بهذا النسق؟

لاحظ.. لست أستدل هنا على وجود الله مباشرة.

بل أستبعد الاحتمالات.. احتمالًا بعد احتمال، وهذا فرق منهجي مهم.

لقد رأينا أن الأفكار الإسعافية تؤجل السؤال.. أما الآن فسنكتشف أنه: كلما ازداد الشيء تركيبًا، ازداد عدد الأسئلة التي يثيرها، لا العكس.

فالتركيب ليس نهاية التفسير.. بل بداية أسئلة جديدة.

قد يعترض فيلسوف فيقول: ليس كل ما نسميه مركبًا مركبًا بالمعنى الذي يوجب الافتقار، فبعض صور التركيب في الفيزياء أو في الميتافيزيقا تختلف عن تركيب أجزاء آلة.

وهذا اعتراض يستحق النظر، ولذلك يجب أن نكون حذرين من تعميم البرهان دون تحرير معنى "التركيب".. فبعض البراهين الفلسفية القوية لا تقوم على مجرد "وجود أجزاء"، بل على وجود تمايز أو قابلية لاختلاف أو افتقار في البنية.

وهذا يزيد البرهان دقة.

لكن.. لم أُثبت بعد من هو واجب الوجود.. لكنني استخرجت شرطًا جديدًا: الحقيقة النهائية لا ينبغي أن يكون تركيبها من النوع الذي يفتح سؤالًا جديدًا عن سبب هذا التركيب.

وكل مرشح للحقيقة النهائية سوف أختبره بهذا الميزان، دون استثناء.

هل يمكن أن تكون الحقيقة النهائية "قانونًا" مجردًا؟

هذا مفترق طرق حقيقي.. فما إن تضيق دائرة المرشحين للحقيقة النهائية، حتى يحاول بعض الفلاسفة أن يتوقفوا عند شيء يبدو أقل إثارة للأسئلة من المادة، وهو القانون.

هل يمكن أن تكون القوانين هي الحقيقة النهائية؟ في القرن العشرين، ومع النجاح الهائل للفيزياء، بدأ يظهر تصور يقول: لعل الحقيقة النهائية ليست المادة، بل القوانين التي تحكم المادة.. وللوهلة الأولى يبدو هذا التصور أرقى من القول بأن المادة وحدها هي الأصل، ولكن هل التصور يصمد أمام الميزان..؟

الأزمة: نسأل أولًا: ما هو القانون؟ حين يقول الفيزيائي: الجاذبية تتناسب مع الكتلة.. فهل الجاذبية نفسها هي التي أوجدت الكتل؟ أم أنها تصف العلاقة بين كتل موجودة أصلًا؟ وهنا نكتشف أول نقطة مهمة.

القانون – في أصله – يصف انتظامًا، ولا ينشئ بنفسه ما يصفه.

مثال: تخيل أن أمامك رقعة شطرنج.. وجئتني بكتاب القواعد.. هل يستطيع كتاب القواعد أن يُوجد رقعة الشطرنج؟ بالطبع لا..

وهل يستطيع أن يُحرك قطعة واحدة؟ قطعا لا.. إنه يبين: كيف تتحرك القطع.. إذا وجدت الرقعة والقطع واللاعب.

الفكرة: إذن القانون ليس فاعلًا.. بل هو وصف لطريقة عمل الأشياء.

وهنا يظهر السؤال: إذا كانت القوانين لا تُوجد شيئًا، فمن أين جاءت الأشياء التي تعمل وفقها..؟!

قد يقول قائل: أنتم تتصورون القانون كأنه مكتوب في كتاب، بينما في الفيزياء القانون ليس نصًا، بل هو البنية العميقة للواقع.

وللإجابة أقول: حسنًا.. حتى لو قلنا إن القانون هو البنية الأساسية للواقع، فإن السؤال يبقى: ولماذا هذه البنية، لا غيرها..؟!

فالانتقال من "قانون مكتوب" إلى "بنية واقعية" لا يرفع السؤال، بل يغير صيغته..!

المكسب: هذا التصور يختصر عدد الموجودات.. فبدل أن نقول: مادة.. وقوانين فوقها، يقول: القوانين هي الواقع نفسه.. وهذا يبدو أكثر بساطة.

الثمن: لكن البساطة ليست دليلًا على الصحة.. فإذا كانت البنية الرياضية هي أصل الواقع، بقيت أسئلة مثل: لماذا هذه البنية؟ ولماذا هذه العلاقات؟ ولماذا يمكن للعقل إدراكها؟ ولماذا تنتج عالمًا قابلًا للحياة؟

إذن.. السؤال عاد مرة أخرى.

وكلما حاولنا أن نجعل وصفًا هو الحقيقة النهائية، عاد العقل يسأل عن الموصوف.. وكلما حاولنا أن نجعل علاقة هي الحقيقة النهائية، عاد العقل يسأل عن الأطراف التي تقوم بها العلاقة، وهذا يجعلني أقول إن الحقيقة النهائية لا يمكن أن تكون مجرد قانون أو علاقة مجردة؛ لأن القانون لا يغني عن السؤال: ما الذي يقوم بهذا النظام؟

حتى الآن كنت أستخدم ميزانًا سلبيًا.. أي: أستبعد المرشحين الذين لا يحققون الشروط.. لكن آن الأوان أن أبدأ الميزان الإيجابي.

أي: بدل أن أسأل: لماذا لا يصلح الكون؟ أو: لماذا لا تصلح القوانين؟

سوف أسأل: إذا وُجدت حقيقة نهائية، فما الصفات الإيجابية التي يلزم أن تتوافر فيها؟ وأظن أن أول هذه الصفات بعد الوجوب وعدم الافتقار ستكون: القدرة على الإيجاد.

وهنا سيبدأ الطرح يأخذ منحًى جديدًا.

هل الحقيقة النهائية "شيء"، أم "فاعل"؟

هذا أخطر منعطف في البحث كله، ولعلك تلاحظ أنني منذ البداية لم أستشهد بآية، ولا بحديث، بل كنت أترك البرهان يقودني، ثم أنظر بعد ذلك: إلى أين أوصلني؟ وهنا سيبدأ البرهان – لأول مرة – في رسم صورة إيجابية، لا مجرد استبعاد البدائل.

كنت حتى الآن أسأل: هل المادة تصلح؟ هل القوانين تصلح؟ هل الكون يصلح؟ لكنني لم أسأل سؤالًا أعمق: هل الحقيقة النهائية يجب أن تكون مجرد موجود، أم لا بد أن تكون مصدرًا للإيجاد..؟! شتَّان بينهما..

الأزمة: لنفترض أن الحقيقة النهائية هي شيء أزلي.. وليكن مادة أزلية.. أو قوانين أزلية.. أو مجالًا كميًا أزليًا.

السؤال: كيف انتقل من مجرد الوجود إلى وجود كون معين..؟!

وهنا تبدأ الأزمة..

المثال الأول: تخيل كرة حديدية موضوعة على الأرض منذ الأزل.. هل سيخرج منها بيت؟ بالطبع لا؛ ليس لأنها ناقصة، بل لأنها ليست من طبيعتها الإيجاد.

وجودها شيء.. والإيجاد شيء آخر.

المثال الثاني: وتخيل كتابًا يحتوي على جميع قوانين الهندسة.. هل يستطيع أن يبني جسرًا؟ بالقطع لا.. القوانين تصف.. لكن البناء يحتاج إلى فاعل.

الفكرة: وهنا يظهر مبدأ يكاد يكون بديهيًا: ليس كل موجود قادرًا على الإيجاد.

إذن.. إذا كانت الحقيقة النهائية هي التي تفسر وجود غيرها، فلا يكفي أن تكون موجودة.. بل يجب أن يكون لها قدرة تفسيرية وإيجادية.

وهنا لأول مرة أنتقل من سؤال: ما الموجود؟ إلى سؤال: ما الذي يملك أن يُوجد؟

لاحظ أن: "الحقيقة النهائية".. ليست مجرد آخر حلقة في السلسلة، بل هي: التي تجعل السلسلة كلها مفهومة..! وشتَّان.. شتَّان بينهما.

الأزمة الجديدة: إذا كانت الحقيقة النهائية تملك الإيجاد.. ظهر سؤال آخر.. هل الإيجاد فعل أعمى؟ أم: فعل صادر عن علم واختيار؟

وهنا يبدأ البحث يأخذ اتجاهًا جديدًا؛ لأنني إذا أثبت أن الحقيقة النهائية فاعلة.. فسيبقى أن أسأل: ما طبيعة هذا الفعل؟

لقد كان القانون: الأفكار الإسعافية تؤجل السؤال.. ثم أصبح: سلسلة "لماذا" لا تنتهي إلا بحقيقة غير مفتقرة.. وهنا أصبح: الحقيقة النهائية لا يكفي أن تكون موجودة، بل يجب أن تكون مفسرة.

والمفسر لا يكون مفسرًا لمجرد وجوده.. بل بما يملكه من قدرة على الإيجاد.

لكن.. قد يعترض أحدهم فيقول: أنتم أدخلتم كلمة (الإيجاد)، وكأنكم افترضتم منذ البداية أن العالم له بداية زمنية.

والصحيح أن السؤال لا يتعلق بالبداية الزمنية.. بل بالافتقار الوجودي.

فالحقيقة النهائية لا يكفي أن تكون موجودة.. بل يجب أن تكون قادرة على تفسير قيام غيرها.. ومن البحث عن: آخر الموجودات.. إلى البحث عن: المبدأ الذي يفسر وجود الموجودات.

متى يكون التفسير قد اكتمل؟

وللإنصاف معك.. لن أبدأ من أن: الحقيقة النهائية يجب أن تكون "قادرة" على الإيجاد.

بل سأبدأ من أن: الحقيقة النهائية يجب أن تكون كافية لتفسير وجود ما سواها.

فإن ثبت أن هذا لا يتحقق إلا بفاعل قادر، انتقلت إلى إثبات القدرة.. أما أن أقفز مباشرة إلى "القدرة"، فليس هذا هو المنهج الذي اتفقت معك عليه من البداية: (البرهان من الصفر).

لقد كنت أسأل: لماذا؟ لكنني لم أسأل سؤالًا آخر: متى يحق لي أن أقول: لقد انتهى التفسير؟

الأزمة: افترض أنني سألتك: من أين جاء هذا الكتاب؟ قلت: من المطبعة.. ومن أين جاءت المطبعة؟ من المصنع.. ومن أين جاء المصنع؟ ،، قد تستمر السلسلة طويلًا.. لكن هل كل جواب فيها من النوع نفسه؟

لا.. بعضها يبين انتقال الشيء.. وبعضها يبين أصل وجوده، وهنا يقع الخلط: العقل لا يطلب تفسيرًا واحدًا، بل يطلب أمرين مختلفين: تفسير انتقال الشيء.. تفسير أصل قيام الشيء، وهذان ليسا شيئًا واحدًا.

مثال: إذا سألت: من أين وصل إليك هذا القلم؟ فأجبت: اشتريته. اكتفى السؤال.

لكن لو سألت: لماذا يوجد في العالم أقلام أصلًا؟ فلن يكون الجواب: اشتريتها؛ لأن السؤال تغير..

الفكرة: إذن.. ليس كل جواب يصلح لكل سؤال.

وهذا يقود إلى قاعدة: ينتهي التفسير عندما يصبح الجواب من النوع الذي يجيب عن السؤال المطروح، لا عندما تتوقف الأسئلة لأننا مللنا منها.. وشتَّان بين هذا وذاك.

الأزمة الجديدة: إذا كانت الحقيقة النهائية تفسر غيرها.. فهل تحتاج هي إلى تفسير؟ وهنا نجد أن السؤال يحتمل احتمالين.

الاحتمال الأول: أن تكون الحقيقة النهائية محتاجة إلى تفسير.

لكن إن كانت كذلك.. فليست نهائية.. بل هناك ما قبلها؛ فتسقط من الترشيح.

الاحتمال الثاني: أن تكون الحقيقة النهائية غير محتاجة إلى تفسير.

وهنا قد يعترض شخص: ولماذا توقفت هنا؟ والجواب ليس: لأنني أردت.. بل لأن السؤال نفسه تغيّر.

إذا كانت الحقيقة النهائية واجبة الوجود فإن سؤال: لماذا وُجدت؟ قد لا يكون من النوع الصحيح؛ لأنه يفترض فيها الافتقار الذي نُفي عنها ابتداءً..!

وهنا لا أتوقف تعسفًا، بل لأنني بلغت شيئًا لا يندرج تحت نوع الأشياء التي كنا نسأل عنها.

بعضهم كان يظن أن المؤمن يقول: لا تسأل عن الله.. لكن البرهان الفلسفي لا يقول ذلك.. بل يقول: اسأل حتى تصل إلى الموجود الذي لا يكون سؤال "ممَّ وُجد؟" منطبقًا عليه بالطريقة نفسها التي ينطبق بها على

الموجودات المفتقرة: أي إن القضية ليست منع السؤال، بل تحرير نوع السؤال.. وهذا فرق دقيق، لكنه حاسم.

وهنا، لم يبق إلا خطوة واحدة.. لقد استخرجت – على سبيل الاختبار – صفات أولية للحقيقة النهائية: لا تكون مفتقرة.. لا يكون تركيبها من النوع الذي يفتح افتقارًا جديدًا.. لا تكون مجرد وصف أو قانون عاجز عن تفسير ما سواه.. تكون كافية لتفسير غيرها.

والآن سيبدأ السؤال الكبير: هل يلزم من هذه الصفات أن تكون الحقيقة النهائية عالمة ومريدة؟ وهنا سوف أدخل إلى أخطر خطوة في البناء كله؛ لأنني إذا لم أستطع البرهنة على العلم والإرادة، فلن أكون قد وصلت بعد إلى تصور الإله في الأديان، بل إلى مبدأ ميتافيزيقي مجرد؛ ولهذا يجب أن أتأنى، وألا أقفز.

إذن: نهاية التفسير ليست قرارًا اعتباطيًا، بل تتعلق بطبيعة السؤال نفسه. فإذا وصلنا إلى موجود لا يندرج تحت صنف الموجودات المحتاجة، فإن توقف سلسلة "لماذا وُجد؟" لا يكون هروبًا من السؤال، بل نتيجةً للبناء الذي سبق.

وأحسب أن هذا سيكون بداية الجسر بين الفلسفة واللاهوت؛ لأنه يبحث: هل تقود صفات الحقيقة النهائية إلى العلم والإرادة، أم لا؟

هل يلزم أن تكون الحقيقة النهائية عالمة؟

انتهيت إلى أن الحقيقة النهائية ينبغي أن تكون كافية لتفسير ما سواها.. لكن بقي سؤال: هل يكفي أن تكون موجودة؟ أم: يجب أن تكون عالمة؟

الأزمة: انظر إلى الكون كما نعرفه.. لست أتكلم فقط عن وجود مادة، بل عن وجود: قوانين دقيقة.. علاقات رياضية.. ثوابت مضبوطة.. بنى معلوماتية (كالشفرة الوراثية مثلًا).. إمكان ظهور عقول تدرك هذه البنية.

والسؤال هو: أي نوع من التفسير يكون مناسبًا لمثل هذا الواقع..؟

لدينا احتمالان كبيران:-

الاحتمال الأول: أن يكون هذا كله نتيجة ضرورة عمياء.. أي أن الحقيقة النهائية لا تعلم شيئًا.. ولا تريد شيئًا، بل يخرج عنها كل شيء بالضرورة.

الاحتمال الثاني: أن يكون هذا النظام صادرًا عن مبدأ يملك العلم.. وليس مجرد الوجود.

والترجيح يبدأ من سؤال آخر: ما الذي يفسر قابلية العالم لأن يُعرف؟

تأمل: العقل البشري.. جزء صغير جدًا من هذا الكون، ومع ذلك.. يستطيع أن يكتشف قوانينه.. ويصوغها في معادلات.. ويتنبأ بظواهر لم يرها بعد؛ وكأن بين العقل والعالم توافقًا عجيبًا..!!

وهنا أسأل: لماذا يمكن للعقل أن يفهم العالم أصلًا؟

قد يقول قائل إن هذا التوافق نتيجة آلية الانتخاب الطبيعي، أي أن العقول التي لم تستطع فهم البيئة لم تبقَ.. وهذا ربما يجيب عن بعض جوانب التساؤل، لكنه لا يحسم السؤال الأوسع: لماذا الواقع نفسه ذو بنية

قابلة للفهم الرياضي؟ ولماذا أمكن أن تنشأ عقول تستطيع إدراكها؟

السؤال الأوسع ليس: هل الحقيقة النهائية تعلم؟ بل: هل يمكن تفسير عالم قابل للفهم بعلة لا يكون للعلم فيها أي دور؟!

هنا كنت أستخرج الصفات واحدةً بعد أخرى.. لكن الحقيقة أن صفات الحقيقة النهائية ليست مستقلة.. بل هي شبكة مترابطة: فالقدرة لا تُفهم وحدها، والعلم لا يُفهم وحده، والإرادة لا تُفهم وحدها.

وهذا سيكون بداية القسم الأخير: البحث عن أقل عدد من المبادئ التي يمكن أن يفسر أكبر عدد من الظواهر.. وهذا – في الحقيقة – هو ما يسعى إليه العلم والفلسفة معًا، كلٌ في مجاله.

فإذا وجدنا تصورًا يفسر الوجود، والعقل، والقوانين، والأخلاق، والوعي،[1] دون أن نضطر في كل مرة إلى اختراع "فكرة إسعافية" جديدة، فسيكون هذا التصور قد كسب قوة تفسيرية حقيقية.. أما إذا احتجنا إلى فرضية جديدة لكل أزمة، فإن قوة النسق التفسيرية تضعف، أو تنهدم بالضرورة.

---

[1] الإلحاد يعجز عن تفسير: الوعي، الإرادة الحرة، التجربة الذاتية، المعنى، الأخلاق، الجمال، التفكير نفسه..! والأعجب أنه يستخدم هذه الأشياء في محاولة نفي ما لا يمكن نفيه.

إنه شبيه بمن يقف على سُلّمٍ ثم يصيح: "أنا لا أؤمن بوجود السلم"! بينما هو يستعمله ليرتفع ويصرخ.

ما الحد الأدنى الذي يلزم لتفسير وجود الكون؟

كثير من الفلاسفة، يبدأون بإثبات الصفات واحدة واحدة.. وأنا بدأت بنفس هذا المنهج، لكن.. هنا ينبغي أن أعود خطوة إلى الوراء.. لماذا؟ لأنني أسأل: هل الحقيقة النهائية عالمة؟ ثم: هل هي مريدة؟ ثم: هل هي قادرة؟ وكأن هذه صفات منفصلة.. لكن الحقيقة أنها قد تكون نتيجة لسؤال واحد أكبر.. وهو عنوان هذا المبحث.

فلست أسأل الآن: ما صفات الله؟ بل: ما أقل عدد من الصفات التي لو ثبتت، لأمكن بها تفسير العالم؟ هذا هو السؤال.

الأزمة: لقد استبعدت حتى الآن: أن تكون المادة وحدها كافية.. وأن تكون القوانين وحدها كافية.. وأن يكون الوصف الرياضي وحده كافيًا.

فما الذي بقي؟ بقي أن أسأل: ما نوع العلة التي يمكنها أن تجعل وجود عالم منظم مفهومًا؟

التجربة العقلية: تخيل أن أمامك ثلاثة أشياء: الأول.. صخرة، الثاني.. كتاب رياضيات، الثالث.. مهندس.

وأعطيت الثلاثة المواد نفسها.. وسألت: من يستطيع أن يبني جسرًا؟

الصخرة؟ طبعًا لا.. كتاب الرياضيات؟ قطعًا لا.. المهندس؟ بالتأكيد نعم.

لماذا؟ هل لأن المهندس أقوى؟ ليس بالضرورة؛ بل لأن فيه شيئًا لا يوجد في الاثنين الآخرين.

الفرق ليس في الوجود.. فالثلاثة موجودون.

ولا في المادة.. فكلهم من العالم.

الفرق الحقيقي هو: في القدرة على توجيه الإمكانات نحو صورة معينة.
وهذه الجملة – في رأيي – أخطر ما وصلت إليه حتى الآن.
لماذا؟ لأن العالم ليس مجرد وجود.. بل هو: وجود بهذا الشكل.
وهذه العبارة الصغيرة: "بهذا الشكل".. تفتح بابًا هائلًا.
فلو كان أمامك ألف احتمال.. وتحقق احتمال واحد.. فالسؤال يصبح: لماذا هذا؟ وليس: لماذا يوجد شيء فقط؟ وهنا تبدأ الإرادة في الظهور..
لاحظ.. أنا لم أقل بعد: ثبتت الإرادة، لكنها بدأت تظهر بوصفها مرشحًا قويًا؛ لأن الانتقال من احتمالات متعددة إلى صورة مخصوصة يثير سؤالًا عن سبب التخصيص.
ما معنى التخصيص؟ إذا كان يمكن أن يكون الكون: أكبر أو أصغر.. أبرد أو أسخن.. بقوانين مختلفة.. بثوابت مختلفة.
ثم وجدناه على هيئة معينة.. فالعقل يسأل: لماذا اختص بهذه الهيئة؟
وليس بمجرد: كيف يعمل؟
وهذه هي اللحظة التي افترق فيها طريقان في تاريخ الفكر:
الطريق الأول: قال: لا يوجد سبب للتخصيص.. الأشياء هكذا فقط.
الطريق الثاني: قال: التخصيص نفسه يحتاج إلى تفسير.. وأحسب أن معظم ما دار بين المتكلمين والفلاسفة، ثم لاحقًا بين المؤمنين والملاحدة، يرجع في عمقه إلى هذا السؤال الواحد.
كنا نبحث عن: واجب الوجود.. ثم عن: العلم.. ثم عن: القدرة.
لكن السؤال الأسبق هو: هل يحتاج التخصيص إلى مخصص؟

هل التخصيص يحتاج إلى مُخَصِّص؟

أبدأ من أبسط مثال، لا من الكون.

الأزمة: تخيل أن أمامك كرة موضوعة على أرض واسعة.. الأرض مستوية من جميع الجهات.. ولا يوجد ريح.. ولا ميل.. ولا إنسان.. ولا قوة خارجية.

ثم رأيت الكرة تتحرك نحو الشرق.. فسألت: لماذا اتجهت شرقًا؟ فأجابك شخص: لا سبب... لقد اختص الشرق من بين جميع الجهات بلا مخصص.

هل تشعر أن الجواب قد فسر شيئًا؟ بالطبع لا؛ وليس لأنك تعرف الفيزياء؛ بل لأن العقل نفسه يسأل: لماذا هذا الاتجاه دون غيره؟!

المثال الثاني: أمامك ورقة بيضاء.. يمكن أن يُرسم عليها مليون شكل.. ثم وجدت عليها مثلثًا، السؤال ليس: هل يمكن رسم مثلث؟ بل: لماذا رُسم هذا المثلث دون غيره؟

فالعقل لا يسأل عن الإمكان فقط.. بل يسأل عن الترجيح.

وهذه الكلمة هي مفتاح المبحث.

ما الفرق؟ هناك فرق بين: أن يكون الشيء ممكنًا.. وبين: أن يقع هذا الممكن بعينه.

فالكون – إذا افترضنا وجود بدائل ممكنة له – لا يكفي في تفسيره أن نقول: كان ممكنًا.. بل يبقى السؤال: لماذا تحقق هذا الممكن، لا غيره؟

وهنا يولد البرهان: إذا تساوت الاحتمالات.. ثم وقع واحد منها.. فالعقل

يبحث عن مرجح..
وليس هذا خاصًا بالدين، بل هو طريقة تفكيرنا في كل شيء..
إذا دخل عشرة طلاب امتحانًا، ونجح واحد فقط، فإننا نسأل: ما الذي رجحه؟ دراسة؟ مهارة؟ حظ؟ لكننا لا نعد "وقع هكذا" تفسيرًا إلا إذا كانت هناك: أسباب تجعل هذا الوصف نفسه جزءًا من التفسير.
وهنا سيعترض فيلسوف معاصر ويقول: أنتم تفترضون أن كل تخصيص يحتاج إلى مخصص.. لكن في ميكانيكا الكم توجد أحداث توصف بأنها احتمالية، فلماذا لا يكون الكون كله كذلك؟
وهذا اعتراض لا يجوز تجاهله.. والجواب.. ينبغي أولًا أن نفرق بين أمرين: وصف فيزيائي لبعض الظواهر بأنها احتمالية وفق نماذج معينة.
دعوى فلسفية تقول إن "كل ترجيح يمكن أن يقع بلا أي مبدأ مرجح".
الأول فرضية فيزيائية ما يزال تفسيرها محل نقاش بين مدارس مختلفة في فلسفة ميكانيكا الكم.
أما الثاني فهو ادعاء أوسع بكثير، ولا يترتب منطقيًا على الأول؛ ولهذا لا يصح القفز من نتائج بعض النماذج الفيزيائية إلى قاعدة ميتافيزيقية عامة.
فإذا كان هناك واقع يقبل بدائل متعددة، ولم يكن في ذاته ما يفسر اختصاصه بإحداها، فإن العقل يبحث عن ما يفسر هذا الاختصاص.
لاحظ أنني لم أُثبت بعد أن المخصص شخص، ولا أنه إله، ولا أنه ذو إرادة.. كل ما أثبتنه هو أن: الاختصاص نفسه ليس شيئًا يمكن أن يتجاوزه العقل إذا لم يجد له تفسيرًا.

هل كل مُخَصِّصٍ لا بد أن يكون مُريدًا؟

أقف هنا أمام أخطر كلمة في علم الكلام كله.. بل أزعم أن نصف الخلاف بين الفلاسفة والمتكلمين يرجع إلى هذه الكلمة.. إنها: الإرادة.

ولكنني لا أريد أن أبدأ بالسؤال: هل لله إرادة؟ لأن هذا قفز على البرهان.

بل أبدأ بالسؤال الذي لا بد منه: أي نوع من الأشياء يستطيع أن يخصص؟

الأزمة: لنفرض أن أمامنا ميزانًا.. ووضعنا في كفتيه وزنين متساويين تمامًا.

فهل يرجح الميزان إحدى الكفتين؟ بالطبع لا؛ لماذا؟ لأنه لا يوجد مرجح داخل النظام نفسه..!

المثال الثاني: تخيل ماءً ساكنًا في إناء مستوٍ.. هل يختار أن يتجه يمينًا؟ أو شمالًا؟ بالقطع لا؛ لأن طرفي المسألة متماثلان بالنسبة إليه.

إذن.. الشيء الذي يعمل بالضرورة لا يختار بين المتماثلات.. بل ينتج دائمًا النتيجة نفسها إذا تكررت الشروط نفسها.

وهذه خاصية القوانين الطبيعية: إذا تكررت الظروف نفسها، تكرر الأثر نفسه.

وهنا تظهر الأزمة: إذا كان أمام الحقيقة النهائية أكثر من إمكان: كون أكبر أو أصغر.. قوانين مختلفة.. ثوابت مختلفة.

فكيف يقع واحد منها إلا إذا كان هناك مبدأ يملك أن يرجح أحد الإمكانات.. وهنا يبدأ الحديث عن الإرادة.. ولكن.. الإرادة ليست مجرد الرغبة، الإرادة في معناها الفلسفي هي: القدرة على ترجيح أحد الممكنات

دون أن يكون الترجيح مفروضًا من خارج الفاعل.

قد يُظن أن الإرادة صفة دينية..! لكن يبدو أنها قد تظهر أولًا بوصفها حلاً فلسفيًا لمشكلة التخصيص.. أي أننا لم نستدعها من النصوص.. بل استدعانا إليها السؤال نفسه.

وهنا، قال بعض الفلاسفة: ولماذا لا يكون الكون صادرًا بالضرورة عن الحقيقة النهائية؟ كما يصدر الضوء عن الشمس.

وهذا اعتراض الفلاسفة قديمًا، ولا يجوز أن نمر عليه مرورًا سريعًا.. فإذا كان الكون صادرًا بالضرورة.. فسنذهب في اتجاه فلسفي.

أما إذا كان صدوره قائمًا على التخصيص.. فسنذهب في اتجاه آخر.

وهذان الطريقان بنيا مدارس كاملة في تاريخ الفكر.

ولذلك.. إذا أحكمت فهم هذه المسألة، فستفهم بعد ذلك لماذا اختلف المتكلمون والفلاسفة، بل ولماذا اختلفت تصورات الأديان نفسها في بعض التفاصيل.

هل العالم صادر بالضرورة أم بالاختيار؟

هذا مفترق طرق آخر، ولعلك تلاحظ أنني منذ عدة مباحث لا أذكر الإسلام ولا الأديان؛ لأننا في منطقة أسبق من الإنسان..

"الحقيقة النهائية".. هذه العبارة، مع جمالها، ما زالت فضفاضة.. ومن الناحية العلمية ينبغي أن أسميها: المبدأ الأول للتفسير؛ لأننا لا نبحث عن "آخر شيء"، بل عن ما يجعل غيره مفهومًا..!

وهذا التعبير يمنع كثيرًا من الالتباس.

وسؤال هذا المبحث هو الذي افترقت عنده الفلسفة اليونانية، والفلسفة الإسلامية، وعلم الكلام، بل وحتى بعض المدارس الحديثة.

الأزمة: لنفترض وجود مبدأ أول كامل.. ونسأل: هل يكفي وجوده حتى يوجد العالم؟ أم: يمكن أن يوجد هذا المبدأ دون أن يوجد العالم؟

إذا كانت الإجابة الأولى.. فالكون لازم له.

وإذا كانت الثانية.. فلا بد من شيء يفسر انتقالنا من: وجود المبدأ وحده. إلى: وجود المبدأ والعالم.

المثال: تخيل الشمس.. إذا وجدت الشمس.. ووجدت الشروط المناسبة، خرج الضوء.. لا اختيار.. ولا تأخير.. ولا تقديم؛ فالضوء لازم للشمس في هذه الصورة؛ ولهذا استعمل الفلاسفة مثال الشمس والضوء كثيرًا.

لكن.. هل العالم يشبه الضوء؟ هنا يبدأ البرهان.

التجربة العقلية: اسأل نفسك: هل يمكن تصور وجود المبدأ الأول.. دون وجود هذا الكون بعينه؟ إذا كان الجواب: لا.. فالكون لازم له.

وإذا كان: نعم.. فقد اعترفت بإمكان وجود المبدأ دون العالم.

وهنا يظهر سؤال جديد: فلماذا وجد العالم إذن؟

لاحظ.. إذا كان العالم غير لازم.. فوجوده أصبح: ممكنًا.. والممكن يحتاج إلى مرجح.. وهنا يعود برهان التخصيص الذي بنيناه معًا في المجلس السابق.. لكن هذه المرة بصورة أقوى.

قال بعض الفلاسفة قديمًا: "بل العالم لازم للمبدأ الأول، كما يلزم النور الشمس".. وهذا التصور يمتاز بأنه يتجنب سؤال: لماذا اختار؟ لأنه لا اختيار أصلًا، لكن.. وهنا يبدأ السؤال الحاسم: إذا كان العالم لازمًا للمبدأ الأول.. فهل كل ما في العالم أيضًا لازم..؟!

هل عدد المجرات لازم؟

هل قيم الثوابت اللازمة بهذا المقدار؟

هل ظهور الحياة لازم؟

هل ظهور العقل لازم؟

أم أن هذه أمور كان يمكن أن تكون على غير ما هي عليه..؟!

فإذا قيل: كلها لازمة.. تحمل هذا التصور عبئًا فلسفيًا يستحيل على الملحد إثباته.

وإذا قيل: بل كان يمكن – كما هو مشاهد ومعلوم بالضرورة – أن تكون غير ذلك.. عاد سؤال: لماذا كانت هكذا؟

فعادت مشكلة التخصيص مرة أخرى..!!

أرأيت خطورة مبدأ التخصيص..

وهنا الخلاف ليس في أن العالم موجود.. ولا في أن له سببًا، بل في: هل السبب يوجب أثره وجوبًا، أم يملكه دون أن يوجبه؟

وشتّان بين هذا وذاك !

هذا هو الموضع الذي افترق فيه المتكلمون عن كثير من الفلاسفة..

ولا أريد أن أقول: "علماء الإسلام قالوا.." بل أريد أولًا أن ينتهي البرهان، ثم ننظر: من وافقه؟ ومن خالفه؟ ومن أين جاء الخلاف؟

إذن البرهان لا يقودنا مباشرة إلى: "إله الإسلام".. ولا حتى إلى: "إله الأديان".. بل يقودنا خطوة خطوة إلى مجموعة من الصفات التي إذا اجتمعت، سننظر بعد ذلك: أي تصور ديني يوافقها أكثر؟ وهذا في رأيي هو الطريق الصحيح؛ لأن منهجي ألا أبدأ بالعقيدة.. بل أصل إليها.

وهنا نصل إلى المنحدر الخطر.. هل يمكن أن يكون هناك "اختيار" دون زمن؟

لأن كثيرًا من الاعتراضات على الإرادة تفترض أن الاختيار يعني: "كنت لا أفعل، ثم بدأت أفعل".. وهذا تصور زمني.

أما إذا كان المبدأ الأول خارج الزمان، فهل يبقى الاعتراض كما هو؟

هذا سؤال بالغ العمق..

وأحسب أنه سيكون من أجمل مباحث الكتاب.

هل يحتاج الاختيار إلى الزمن؟

سأطرق بابًا لا يكاد يُطرق في الحوارات العامة، مع أنه أصل اعتراضات كثيرة.. لقد كان الفلاسفة يعترضون على المتكلمين قائلين: إذا كان الله اختار أن يخلق، فلماذا اختار في هذا الوقت دون غيره؟ أليس هذا يعني حدوث إرادة جديدة؟

وهذا الاعتراض يبدو قويًا... إذا افترضنا أن السؤال نفسه صحيح !

لكن.. هذه من أعقد المسائل في الفلسفة.. ودعني أبدأ من نقطة أبسط.

الأزمة: نحن – بحكم حياتنا اليومية – نفهم الاختيار هكذا: كنت جالسًا.. ثم قررت أن تقوم.. فقمت.

فالاختيار عندنا مرتبط دائمًا بـ: قبل... وبعد.

ومن هنا نشأ الاعتراض: إذا كان الله اختار، فلا بد أن تكون إرادته قد تغيرت.. وإذا تغيرت.. فقد حدث فيها ما لم يكن.

لكن.. هل هذا التصور لازم..؟ أم أنه ناتج عن إسقاط تجربتنا البشرية على المبدأ الأول..؟!

التجربة العقلية: تخيل مؤلفًا يكتب رواية.. داخل الرواية يوجد: صباح.. مساء.. أمس.. غد، لكن المؤلف نفسه.. هل يعيش داخل زمن الرواية..؟! كلنا نعلم أن الجواب هو لا.. فكل زمن الرواية حاضر عنده وهو يكتبها.. فهو ليس "قبل" الفصل الأول، ثم "بعد" الفصل الأخير، من داخل عالم الرواية نفسه..!

انتبه جيدًا: أنا لا أقول: إن العلاقة بين الله والعالم كعلاقة الكاتب بالرواية.

سبحانه.. ليس كمثله شيء.. وكل تشبيه قاصر..!

وإنما أستعمل المثال لشيء واحد فقط: لبيان أن الفاعل لا يلزم أن يكون خاضعًا للزمن الذي يقع فيه فعله.. وهذا هو موضع الشاهد..!

إذن: نحن نستعمل كلمة "قبل" استعمالًا مضللًا..! حين نقول: ماذا كان قبل خلق الزمن؟ فقد يكون السؤال نفسه غير منضبط؛ لأن كلمة "قبل" تنتمي إلى الزمن.. فإذا كان الكلام عن أصل الزمان، فربما لا يصح أن نستعملها بالطريقة نفسها.

وهذا يشبه أن تسأل: ما الذي يقع شمال القطب الشمالي؟ فالسؤال يوحي بوجود جهة "أبعد شمالًا"، مع أن مفهوم "الشمال" نفسه ينتهي هناك بحسب النظام الذي نستعمله.

الأزمة الجديدة: إذن.. إذا لم يكن المبدأ الأول داخل الزمن.. فكيف نفهم الإرادة؟ هل هي حادثة؟ أم أزلية؟

وهنا فكرة: ربما نحن نخلط بين شيئين: الإرادة نفسها.. ومتعلق الإرادة.

فالكاتب قد تكون لديه إرادة ثابتة لكتابة الرواية، لكن أحداث الرواية تقع في أزمنة مختلفة.. ليس لأن إرادته تغيرت؛ بل لأن ما أراده يتضمن ترتيبًا زمنيًا داخل الرواية.. فالتغير في المتعلَّق، لا يلزم منه تغير في الإرادة..!

هذا مثال تقريبي، لكنه يوضح نوع التمييز الذي يناقشه الفلاسفة والمتكلمون.

وهنا قد يقول معترض: لكن إذا كانت الإرادة أزلية، فلماذا لم يكن العالم أزليًا؟ وهذا اعتراض مفهوم.. لكن لاحظ.. هو يفترض مرة أخرى أن

الإرادة لا يمكن أن تتعلق إلا بما هو مقارن لها زمنيًا.

وهذا هو موضع النزاع..

فإن كان الزمان نفسه جزءًا من العالم، فليس من الضروري أن تكون العلاقة بين المبدأ الأول والعالم علاقة زمنية من الأصل.. انتبه لذلك !

وهذا يعني أن بعض الاعتراضات قد تحتاج أولًا إلى تحرير لغوي وفلسفي قبل الحكم عليها.

إذن: ليس كل اختيار يستلزم تغيرًا زمنيًا في الفاعل..

إذا كان الزمان نفسه من خصائص العالم، فلا يلزم أن تكون علاقة المبدأ الأول بالعالم علاقة زمنية.

كما ينبغي التمييز بين الإرادة وبين متعلَّق الإرادة؛ فقد يكون ترتيب الأحداث زمنيًا في العالم، دون أن يلزم من ذلك تغير في ذات المبدأ الأول.

اقتربت من نهاية المنهج الفلسفية، لكن بقي سؤال واحد.. هو، في نظري، التاج الذي يعلو كل ما سبق: إذا أوصلنا العقل إلى مبدأ أول واجب، مفسِّر، غير مفتقر... فهل يكفي العقل وحده لمعرفة من هو؟

هنا تبدأ مرحلة الوحي؛ لأن العقل قد يرسم الملامح العامة، لكنه قد لا يستطيع وحده أن يخبرنا: هل هذا المبدأ يرسل رسلًا؟ هل يتكلم؟ ماذا يريد من الإنسان؟ ولماذا خلقه؟

وهنا لا يعود الصراع بين العقل والوحي، بل يصبح الوحي – إن ثبت صدقه – مكمِّلًا لما وصل إليه العقل، لا منافسًا له.

وهذه ستكون أجمل خاتمة لهذا الكتاب.

أين يقف العقل... وأين يبدأ الوحي؟

أختم مرحلة من مراحل العقل.. وبعد هذا المبحث لن يكون السؤال: هل العقل أم الوحي؟ بل سيصبح: ما وظيفة كل واحد منهما؟

وهذا هو أجمل ما يمكن أن ننتهي – جميعنا – إليه.

وصلنا – على سبيل البحث لا على سبيل المصادرة – إلى أن العقل يستطيع أن يقترب من وجود مبدأ أول، غير مفتقر، يفسر وجود غيره، وأن كثيرًا من الأسئلة تقود العقل إلى البحث عن العلم، والإرادة، والقدرة.

لكن دعني أسأل سؤالًا: هل يستطيع العقل وحده أن يعطينا الدين..؟

الأزمة: افترض أن رجلًا عاش في جزيرة وحده.. ونظر في الكون سنوات طويلة.. وأدرك أن لهذا الكون مبدأً أول، فماذا عرف؟ عرف – على أقصى تقدير – أن هناك مبدأً يفسر الوجود.. لكن هل عرف: هل هذا المبدأ يحب العدل؟ هل يكره الظلم؟ هل خلق الإنسان لغاية؟ هل هناك بعث؟ هل هناك حساب؟ هل أرسل رسلًا؟

لا.. ليس لأن العقل ضعيف؛ بل لأن هذه ليست أسئلة عن وجود المبدأ، بل عن إرادته وخطابه..

المثال: لو رأيت قصرًا عظيمًا.. لأدركت بالعقل أن له مهندسًا؛ لكن هل تستطيع بمجرد النظر إلى القصر أن تعرف: اسم المهندس؟ لغته؟ ماذا يريد من سكان القصر؟ هل ترك لهم تعليمات؟ قطعا لا..! فإن احتجت إلى هذه المعلومات، فلا بد أن تأتي من المهندس نفسه..

وهنا يبدأ معنى الوحي..

أغلبنا يستعمل كلمة "الوحي" استعمالًا ناقصًا.. فكثير من الناس يتصور الوحي: بديلًا للعقل..!! بينما صورته الصحيحة هي.. الوحي: جواب عن أسئلة لا يملك العقل أدوات حسمها بنفسه..

فالعقل لا يُلغى، والوحي لا يُستغنى عنه.. بل لكل واحد مجاله.

الأزمة الجديدة: لكن.. إذا كان هناك وحي.. فقد ظهر سؤال أعظم: كيف نميز الوحي الصادق من الوحي المدعى؟

وهنا يبدأ علم آخر.. وهنا تكتمل الدائرة.

كيف نميز الوحي الحقيقي من البناء البشري الذي تراكم حوله؟

القاعدة الذهبية: العقل ليس خصمًا للوحي، وإنما هو القاضي الذي يثبت صدق مدعي الوحي، ثم يصبح الوحي هو المعلم فيما لا سبيل للعقل إلى إدراكه استقلالًا.

هذه العبارة تحتاج إلى شرح، لكنها في رأيي تلخص العلاقة كلها.. فالعقل لا يحاكم مضمون الوحي تحاكمًا عبثيًا بعد أن ثبتت نسبته، وإنما يحاكم أولًا دعوى النبوة: هل قامت عليها الأدلة أم لا؟ فإذا ثبتت، صار من مقتضى العقل نفسه قبول خبر من ثبت صدقه فيما يخبر به عن الغيب.

ولو رجعنا الآن إلى الإلحاد، لوجدنا أن أزمته الكبرى لم تكن إنكار الله فقط.. بل كانت محاولة جعل العقل مكتفيًا بذاته في ميدان لا تكفي أدواته فيه.. ولو رجعنا إلى بعض صور التدين، لوجدنا أزمة معاكسة..

وهي تعطيل العقل بدعوى الاكتفاء بالنقل.

وكلا الطرفين – في تقديري – فقد أحد جناحي المعرفة.

الخاتمة

يمكن للفلسفات المختلفة أن تقترح "حقيقة نهائية" يتوقف عندها التفسير، لكن يبقى النقاش حول أي تصور يملك مبررًا فلسفيًا أقوى.

لقد بدأنا بسؤال: لماذا يلحد الإنسان؟ ثم اكتشفنا أن وراء الإلحاد أزمات.. ثم رأينا أن كل أزمة تُنتج فكرة إسعافية.. ثم تركنا الإلحاد كله، وبدأنا نبني ميزانًا مستقلًا.. ثم انتهى بنا الميزان إلى البحث عن المبدأ الأول.. ثم إلى حدود العقل.. ثم وقف العقل أمام باب لا يستطيع أن يفتحه وحده.. فلم يكن هذا الباب نهاية العقل.. بل كان بداية الوحي.

كلمة أخيرة: أريد أن أقول لك شيئًا خارج متن البحث.. أشعر أن موضوع هذا الكتاب – مع صغر حجمه المقصود – يختلف عن كثير من الكتب؛ لأنه لم يبدأ بإثبات عقيدة، ثم جمع الأدلة لها، بل بدأ بتعليم العقل كيف يسير..

فإن تعلم السير الصحيح، استطاع أن يعيد قراءة الإلحاد، والنصرانية، واليهودية، والفلسفات، بل وحتى الخلافات داخل الأمة، بميزان واحد لا بميزانين..

وهو المنهج الذي اتبعته في هذا البحث منذ البداية: منهج الفكرة الأم، والأزمة، والفكرة الإسعافية، ثم بناء الميزان قبل إصدار الحكم.

والحمد لله رب العالمين..

الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله..

لقد جاءت رسل ربنا بالحق،،

الفهرس

مقدمة	٤
تمهيد.. العُقد التي واجهت الإلحاد عبر تاريخه	٦
كيف وُلدت فكرة "اكتفاء الطبيعة بنفسها"؟	١٠
الطبيعانية الفلسفية	١١
أول عقدة حقيقية	١٢
من "الطبيعة تفسر الظواهر" إلى "الطبيعة تفسر نفسها"	١٦
لماذا قوانين الكون هكذا؟	١٩
هل يمكن الوثوق بالعقل إذا كان مجرد نتاج للمادة؟	٢٢
من أين جاء "ينبغي"؟	٢٥
لماذا يوجد شيء أصلًا؟	٢٧
اكتشاف القانون العام	٢٩
هل تنتهي سلسلة "لماذا"؟	٣١
قبل أن نسأل: ما الحقيقة؟ يجب أن نسأل: ما معنى التفسير؟ ما الصفات التي يجب أن تتوافر في الحقيقة النهائية حتى يصح أن تتوقف عندها سلسلة (لماذا)؟	٣٤
هل يمكن أن يكون المركب هو الحقيقة النهائية؟	٣٦
هل يمكن أن تكون الحقيقة الإلهية "قانونًا" مجردا؟	٣٩
هل الحقيقة النهائية "شيء"، أم "فاعل"؟	٤٢
	٤٥

متى يكون التفسير قد اكتمل؟	٤٧
هل يلزم أن تكون الحقيقة الإلهية عالمة؟	٥٠
ما الحد الأدنى الذي يلزم لتفسير وجود الكون؟	٥٢
هل التخصيص يحتاج إلى مُخصِّص؟	٥٤
هل كل مُخَصِّصٍ لا بد أن يكون مُريدًا؟	٥٦
هل العالم صادر بالضرورة أم بالاختيار؟	٥٨
هل يحتاج الاختيار إلى زمن؟	٦١
أين يقف العقل.. وأين يبدأ الوحي؟	٦٤
الخاتمة	٦٦
الفهرس	٦٧



لا يستطيع "العلم" نفي الخالق حتى لو أراد !

الوهم المركزي عند الملحد: أنا لا أؤمن إلا بما يثبته العلم.

جملة تبدو متواضعة.. لكنها في الحقيقة أكثر الجمل تعاليًا في تاريخ الفكر؛ لأن قائلها يفترض – دون وعي – أنه: يعرف حدود العقل، ويُمسك بمفاتيح العلم، ويملك معيار الحقيقة نفسه !

وكل ذلك، دون برهان واحد على صلاحية هذا الافتراض..!!

الملحد عندما يقول: "لا أؤمن إلا بما يُثبت علميًا"، فإنه يصادر على المطلوب إثباته.. فهذه المقدمة لا تصل إلى الإلحاد، بل تفترضه مسبقًا؛ لأنها تجعل: ما لا يخضع للتجربة.. غير موجود !!

والحقيقة أن المنهج التجريبي بأكمله يثبت – فقط – ما هو ماديٌّ قابل للرصد ! ولا يملك الحكم على ما وراء الطبيعة.. فالعلم ((يعجز)) عن نفي الإله.. حتى لو أراد نفيه؛ فما بالك والقوانين نفسها، والعقل، والمنطق، والوجود، والمعنى.. كلها تشير إلى الله ﷻ؛ لذلك فإن الإلحاد الحديث الذي وُلِد من افتراض أن الطبيعة مكتفية بذاتها.. **وُلِد ميتًا**.